أفراح مابعد موتي

طبع في مصر

أفراح مابعد موتي

قصص

محـمد هلال

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2019

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

2019 – 1441

رقم الإيداع: 16802 / 2019

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 368 – 3

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إهداء ..

إلى حبات المطر ..

من بعثت في القلب الحياة ..

ثم حاولت اغتياله .

أفراح ما بعد موتي

صادفني بائع «روبابيكيا» وقد امتلأت عربته الخشبية التي يدفعها أمامه بالكتب القديمة، قلّبت فيها فوجدت مفاجأة غريبة؛ مذكرات بخط يد أستاذي في قسم الفلسفة الذي انتقل عن دنيانا منذ سنوات، سألته كيف حصل عليها؟ فقال: يبدو أن أسرته انتقلت من مسكنها إلى آخر فتخلصوا من كتبه وأوراقه وكل قديم في مسكنهم القديم، فاشتريت منهم ما ملأ العربة، والحق يقال كانوا كرماء معي أو زاهدين فيها فلم يجادلوا في ثمنها، فهي تزحم المكان بلا فائدة.

أصابني حديث الرجل بصدمة كبيرة؛ إذ كيف لهذا التراث القيم من الفلسفة أن يكون مصيرة عربة بائع متجول ربما لا يعرف القراءة والكتابة؟ ابتعت منه عدة كتب رغم وجودها في مكتبتي؛ ولكن تكمن ميزتها أنها في طبعتها الأولى القديمة جدًا، من تأليف أستاذي الراحل الذي كان يراه أساتذة الفلسفة عبقري الزمن القادم لتميز أفكاره .. وعندما وقعت يدي على كراسة مذكراته الخاصة بخط يده إرتجف داخلي لكشف أسرار الرجل بهذه الطريقة المتاحة لأي عابر؛ وحمدت اللـه أن وقعت في يدي . وهمست في نفسي: «خبيئة ثمينة» إذا كان المسطور بها من الآراء الفلسفية والتأمل في الكون والحياة ما بها، سأقوم بترتيبها ونشرها.. وذلك أبسط حقوقه عليّ كتلميذ له كان أثيرًا

لديه، وفرحت جدًا رغم حزني وصدمتي على طريقة أولاده في بيع كتبه وأفكاره وكأنهم ينظفون البيت من قاذورات.

وإن كانت غير ذلك من قبيل بوح النفس الذي يحبه البعض فالحمدلله أن وقعت في يدي، سأخفيها أو أحرقها المهم عندي ستر لحظات الضعف التي يمكن أن تشوه أستاذًا له قدره الفلسفي، وحمدت الله كثيرًا أن لم يسبقني إليها أحد الذين يعملون بالصحافة الثقافية، ساعتها سينشرها وحبذا لو كانت فضائح وربما زاد من عنده تفسيرًا مغرضًا، أو يتصل بمن كانوا يكرهون تميز الأستاذ فتكون الفرصة لتشويهه، ويظهرالصحافي القزم الأخلاقي على ورق الجرائد فارسًا يقدم للقاريء سبقًا أو إنفرادًا صحفيًا كبيرًا.

***

لشدة شوقي لمعرفة أفكاره التي لم ينشرها جلست على أقرب مقهى في طريقي وجعلت أقلب الأوراق المكتوبة بخط يده الذي أعرفه جيدًا، فلم أجدها مذكرات بالمعنى المتعارف عليه، أو خطة أفكار لكتاب جديد ينتوي كتابته وإنما نفثات مكروب يستشرف الموت وتعتصره الآلام لجهله بساعته المحتومة، وكل مايرجوه معرفة موعد مجيئه بعدة ساعات فقط، وكذا أذهلني عنوانها الذي يقول:

«أحزان ما بعد موتي» ..

وقد بدأ كلماته غير المرتبة بجملة وكأنها عنوان جديد:

«خواطر عاشق لنور الفلسفة يأكله القلق».. وقد دار بالقلم حول الكلمات عدة دورات عميقة ثقبت الورقة في أكثر من موضع، وكأنها تعبيرات لأحزانه بلغة سرية لايعرفها غيره ..

أحيانًا يكتب في هامش الورقة بعرضها وليس بالطريقة المعتادة، وأحيانًا يكتب داخل دائرة يرسمها بالقلم عشوائيًا، وهنا وقعت في حيرة وتساؤل: هل هذه أسرار لايجب البوح بها، ويجب دفنها كما دُفن صاحبها؟ أم أنها حالة ربما يمر بها سواد الفلاسفة والمفكرين والأدباء الصادقين؟

قلت في نفسي لأقرأ أولًا حتى نهاية الأوراق وسوف تتضح الرؤية ويكون القرار.. داخل دائرة بطول الورقة كتب استاذي حولها من الخارج بيت شعرمن قصيدة رباعيات عمر الخيام ترجمها أحمد رامي ولحنها رياض السنباطي وغناء السيدة أم كلثوم: «وقد تساوى في الثَرى راحلٌ غدًا وماضٍ من أُلوفِ السِنين»، وفي داخل الدائرة كتب:

«ليس قلق الموت فهو قدر محتوم لايستأهل منا نحن الفانين الهالكين القلق، فأنا لا أخشاه رغم أنه حكم بالإعدام يتم تنفيذه بلا مراسم أو تلاوة حيثيات، إلا أنه الحقيقة الوحيدة التي يتوحد فيها البشر دون فوارق؛ ولكن ما أخشاه ساعته المجهولة المباغتة، أتمنى لو يخبرني قبل لحظته الحاسمة بعدة ساعات فقط، ألملم فيها أوراقي وأسراري الخاصة التي لا أود أن يهتك سترها مخلوق بعدي وأتخلص منها ثم يفعل بي ما جاء من أجله».

***

وفي صفحتين متجاورتين كتب فيهما وكأنهما صفحة واحدة:

«عندما يتذكرني الموت سيذكرني أحبتي قليلًا ثم يواصلون الحياة، وذلك لايحزننى فتلك طبيعة البشر، كما لا يحزنني موتي فقد تمنيته أكثر من مرة، فى مواقف كان تجرع كأسه أقل مرارة من كأس الحياة؛ ولكن أبشع ما في الموت أن تكون أشياؤك الخاصة جدًا مستباحة لمن يعثرعليها، ومستباحة التفسير حسب الهوى.

ربما يلعنوني فيما بينهم – أقصد أهل بيتي وأخوتي الباقين على قيد الحياة – لأن مقاصدي الفلسفية تغيب عن أفهامهم؛ ويمتدحوني فى العلن لأنني منهم، ويؤلون أفعالي التى لا تروق لهم بالخير؛ ليس حبًا لها ولكن حتى يقتنع الآخرون بصلاحي، وأنني لقيت ربي الكريم وأنا مؤمن به وبوجوده ورسله وكتبه وأنني كنت حريصًا على الصلاة في أوقاتها، وذلك لإرضاء «صبيان العقيدة» لأنهم يكرهون الفلسفة ومن يتكلمون بها، فالحقيقة التي تعجزعنها ذهانياتهم قد تسيء اليهم – حسب ظنهم – وذلك ما يحزننى جدًا.

***

وفي عدة صفحات كتب شهادة لاتفارق ذاكرته، يقول:

«لقد رأيت وأنا في مطلع شبابي جنازة لمفكر كبير رغم صغر سني عمره ؛ كرمته الدولة بعد دفنه بثلاثين عامًا، وأعادت طباعة كتبه على

أنه رائدًا من رواد التنوير .. قتله إجتهاده، فقد جعل من نذروا أنفسهم خصومًا له وحرضوا على أفكاره فقهاء السلطان رغم أنهم لم يقراؤها .. فجاءه الموت على أيدي بعض المتطرفين الذين يجهلون القراءة والكتابة تقربًا منهم إلى اللـه بدمائه! وليس خلف نعشه من الخلق الذين قُتل من أجل إنارة عقولهم، سوى مايكفي بالكاد لموارة جثته تحت التراب على عجل شديد، وما تخلفوا إلا لخوفهم من لعنة الله التي ستصيبهم حسب فتوى «صبيان الفقهاء الجدد»، الذين يقدسون المتعة الحياتية وتعدد الزوجات الصغيرات وركوب السيارات الفارهات متنطعين قائلين: «ومن يحرم زينة اللـه التي أحل لعباده»؟

قد كان يفضح جهلهم وجمود عقولهم وتشددهم بغير فقه حقيقي؛ وحرصهم على العيش في بحبوحة ومساكن ذات معارج عليها يظهرون، ودلال صغيرات السن جدًا، رغم تحريضهم الناس من فوق المنابر وأشرطة «الكاسيت «التي تضخمت حتى أصبحت قنوات فضائية على الزهد في الدنيا والعيش الكفاف تأسيًا بالنبي الكريم الذي كان يجوع يومًا ويشبع يومًا، ولايوقد في بيته الطاهر نارًا لمدة شهرين وثلاثة أشهر بقصد طهى الطعام، وتخويفهم بعذاب القبروأهواله، ونصحهم بمنح ما في أيديهم للجمعيات التي يسمونها «خيرية» والتي يشرف على إنفاقها بالطرق الشرعية أهل العلم الرباني - يقصدون أنفسهم - ليشتري المنفقون لأنفسهم جنة الخالق يوم الحساب ويفلتون من عذاب الجحيم!

وكانت تحمر وجوههم وتنتفخ أوداجهم وهم يلعنون باسم اللـه أفكارالأستاذ لأنها فلسفية، والفلسفة من وحي الشيطان، والحق يقول: «لاتتبعوا خطوات الشيطان»، ويقولون: إن اللـه بقدرته يدبر لنا مايصلحنا، وليس هذا الفيلسوف الكافروأمثاله ومن يؤمنون بأفكاره ..

كان العامة يصدقونهم لجهلهم بفلسفة مايدعو لتحررهم من أسر ضلالات جمود عقولهم، وأورثت فتاويهم أهله العار؛ رغم إعلانهم البراءة منها ومنه ليرضى عنهم «صبيان الفتاوى» الذين نصّبوا أنفسهم حراسًا لشرع اللـه وفهم مقاصده.

فالبسطاء فقراء الذهنيات يمثل رضا الناس وخاصة «صبيان الفقهاء» عنهم مقامًا كبيرًا، ربما يفوق مقام رضا اللـه سبحانه فى نفوسهم!

يتعاطون الأمثال الشعبية الساذجة المنافقة، على أنها حكمة الآباء والأجداد .. «دَارهم مادمت في دِارهم»، «إرضهم ماعشت في أرضهم» فتاجر المخدرات الكبيرالذي يوزع عليهم لحوم الأضاحي والهدايا هو «الحاج»، والفاسد المتوحش في فساده الذي يتبرع لهم ببعض ماله الحرام بدعوى المشروعات الخيرية «الباشا الكبير الصالح».

***

وفي صفحة أخرى أكثر حزنًا كتب الفيلسوف الراحل:

«يمنحوك فى الساعة الأولى لقب «المرحوم»، ويتراجع اسمك الحقيقي أمام هذا اللقب الذى لابد منه، تماماً مثل «الكفن»، لابد من

الكفن حتى لو جاء الموت فى سفينة وسط البحار، لابد وأن يكفن الميت، قبل أن يُلقى به وجبة شهية للأسماك، وكائنات المياة المالحة ..

ويصبح الخلاص من صورك الضوئية المعلقة على الحائط، وإزالة شهادات التقدير والدرجات العلمية ضرورة دينية حتى لاتذكرهم بأفكارك الكافرة، حين تصدم عيونهم الطيبة المؤمنة بفقه «صبيان الدعوة «صورك الشريرة».

***

أغلقت «كراسة خواطر الأستاذ» فقد شعرت بدواريجبرني على التوقف، القيت جسمي على سرير النوم عله يدركني مما حل بي من أحزان..

لا أدرى أي شيطان تسلل إلى رأسي تلك الليلة، كما فعلها كبيرهم قديمًا، وكان سببًا فى طرد آدم وحواء من نعيم الجنة إلى شقاء الأرض، استقر الملعون في رأسي فطار النوم وطالت ساعات الليل والسهد، وجعل يستعرض معي وقائع موتي، لحظة بلحظة، ساعة بساعة، يوماً بعد يوم، داخل القبر وخارجه، وأنا على غير عادتى مستسلمًا، إستسلام الميت وهم يغسلون جسده، يحركوه كيفما أرادوا؛ يؤلمني جداً أن اكون مستباحًا ولا إرادة لي.

فى الجانب الأيمن للقبروعلى شقي الأيمن أرقدوني حسب السُنَّة، وتمتم رجل فى أذني اليسرى جهة القلب، يوصيني بإجابات على اسئلة

سيواجهني بها ملائكة الحساب: «اذا سألوك عن اسمك، أنت عبدالله، وربك الله، ودينك الإسلام، وكتابك القرآن، والنبي الذي بعث فينا محمد صلى الله عليه وسلم».

وكنت قبل موتي أتعجب، هل من حسابين لفعل واحد، أحدهما في القبر والآخر فى يوم الحساب؟! حاشاه الله أن يفعل.

أراني الملعون جسدي يتورم، بطني ينتفخ ساعة بعد ساعة، ويصطدم بالحَجَر المثبت قدامه حتى لاينقلب الميت على وجهه، بل يرتد على ظهره؛ لحمي يتساقط ببطء، والدود يتراقص فى أحشائي، والشحوم تذوب وتسيل، وكأنها قطع زبد فوق نار هادئة، أو قطرات الدهون التى تتساقط من اللحم المشوي فوق الفحم الملتهب عند صانع الكباب .. ومن المفارقات التي جعلتني أبتسم ساخرًا بمرارة إن الخلاص من تلك الدهون المتراكمة داخلي قبل موتي كان مشكلة كبيرة؛ وأنفقت على الخلاص من بعضها عند الأطباء الكثير من الأموال، حقًا عند الموت حلًا للمشكلات العصية.

رأى الملعون إبتسامتي الساخرة فظنني أهزأ به؛ فجعل يرتب الأحداث بشكل كله شماته وكأنه المنتصر المتوج بأكاليل الغار على عدوه المسحوق تحت قدميه الذي هو أنا، وقال: أنا لأموت أما أنتم فميتون، أتظنون أنكم عند اللـه أفضل مني؟ كلا وإلا ما أماتكم وجعل عظامكم تراب تطأوه نعالكم، فأى كرامة تدعون؟ ثم رقص حول نفسه وقال: إسمع ياهذا ماينتظرك، في أول يوم يبدأ تعفن بطنك وفرجك

وقد كانا كل همك وعنوان متعتك ولذتك الكبرى، في اليوم الثاني يواصل التعفن درجاته ليطال الطحال والكبد وتنتفخ العينين واللسان الذي كثيرًا ماتعاليت به وأخرجت سموم قلبك، ويتغير لون جلدك الذي أنفقت في تجميله الكثير من المال الحلال والحرام سيصير إلى اللون الأخضرالزيتوني الباهت، في يوم الثالث يشم الذباب الأزرق رائحة نتنك فيحوم حول قبرك يريد الخول إليك بينما الدود يتراقص في أعضائك، وتملأ رائحك النتنة.

جدًا تملأالقبر، ويتسلل بعضها خارجة لكثافتها الضاغطة .

أخذني دوار «قَرَف شديد» من رائحتي، قفزت إلى الحمَّام، استفرغ مافي جوفي، مافي نفسي «فإنَّ من القَرَف التَّلف»، جعلت اسكب على أنفي روائح ذكية نفاذة، محاولًا الخلاص من رائحة عُفُونتي، وخرجت مذعورًا إلى الشارع أحتمي بالناس من سطوة قبح الشيطان وقبح موتي.

***

لم يتركني الملعون في الليلة التالية؛ تسلل خلسة داخل رأسي حتى كرهت غرفة نومي، مرة أخرى هجرني النوم فقد جلب لمخيلتي صور الأهل والأصدقاء وزملاء العمل، وجعل يصنفهم حسب خبرته الطويلة والعميقة جدًا بالبشر من سيحزن وكم يومًا سيطول حزنه، ومن سيدعي الحزن وقلبه يرقص طربًا لانه سيحتل مكاني الوظيفي، ومن سيقول شامتًا: فليذهب إلى الجحيم، فقد أراحنا الله من غطرسته.

قهقه الملعون وهمس فى أذني: لاتظن أن اخوتك سيحزنون – كما تتوهم – مجرد حزن تقليدي، بل أن أحدهم ستدمع عينيه وقلبه ينتشي فرحًا فقد كان يكرهك، رغم أنه الأكثر استفادة منك، بل أنك من وضع حجر أساس مستقبله، وجعلت منه رجلًا محترمًا بين الناس.

أنت تعرف صفاته جيدًا، بخيلًا ولئيمًا، شحيح النفس، حريص على الدنيا رغم اكاذيبه عن فضيلة الزهد وكأنه أحد صبيان الفقهاء الجدد، سيفتش في سيرتك بعد وقت من رحيلك عن نقيصة ما ليذكرها وهو يدعو اللـه «كاذبًا» بأن يغفر لك، قاصدًا من ذلك أن يعرفها من يجهلها، يدّعى الإيمان الشديد بالله رغم شكه فى وجوده سبحانه .

أما شقيقك الثاني، فسيبكيك بقوة ويأخذ منه الحزن مأخذه، ولكن سر ذلك ليس رحيلك المباغت أو حبه الشديد لك، ولكن تلك طبيعته فهو يبكى لأتفه الأمور، ولأقل المشاهد» درامية فى الأفلام والمسلسلات «، وتدمع عيناه للحكايات الخيالية لخطيب المسجد يوم الجمعة الذي يحرص على التباكي، ليبكي الناس فتزداد شعبيته الإيمانية، فكانت دموعة تنهمر ماجعل الخطيب يشهد له بالإيمان ورقة القلب، وأنه بعد عمر طويل من أهل الجنة، فكان ذلك يسعده كثيرًا؛ رغم أنه لايفرق بين مال يأتيه من حرام أو حلال، ويراه رزقًا من عند الله، يستحق عليه الحمد والشكر.

ويتساوى فى بكائه من يمت فى «مسلسل تليفزيوني» ومن يمت أمامه غارقًا فى دمه إثر حادث أليم أومن يمت بين يديه مثلك.

وغمزالملعون بأحد عينيه ورقَّص حاجبه، وقال: سيضعوك فى التراب ويجلسون فى العزاء، يرددون أقولًا مكرورة فى هذه المواقف: «كان المرحوم – الذى هو أنت ـ أهلًا لكل خير، كان كريمًا وعطوفًا، كان وكان وكان .....» ثم يذهبون إلى تناول الطعام المتميز فى مثل تلك المناسبات، اللحم المحمر والأرزالمخلوط بالشعرية والبطاطس المطبوخة ذات القطع الكبيرة الطويلة، ويشربون القهوة وينفثون دخان السجائر وكأنها السلوى والسلوان لهم في مصابهم الذي هو أنت!

بعد عدة أيام سيختلفون وربما يتشاجرون فى اقتسام ميراثهم مما تركته فإنك لم تنجب ذكورًا، ومنهم من سيدبر للزواج من أرملتك بدعوى تربية بناتك، بينما هدفه الحقيقي الإستمتاع بزوجتك الحسناء والميراث الذي تركته لهم، وستخبره زوجتك بشهوة خفية ضرورة إنجاب ولدًا ذكرًا لتحقيق أمنيتك التي لم تتحقق؛ رغم أنك كنت راضيًا فَرحًا ببناتك ..أو يجذبها الحنين إلي حبها القديم وترتمي في أحضانه باكية وهو يربت على كتفيها يواسيها في رحيلك، وسيذكرون معًا فضائلك بكلمات دافئة في بداية الأمر ثم تتلاشى سيرتك وتحل مكانها الضحكات وكلمات الغزل والنشوى، وستقول له: لولا وقوفك بجانبي كنت سأصاب بالجنون؛ وسيستعيد معها العشق القديم ويلعن الظروف التي فرقتهم وأنه كان يتمنى أن تكن بناتك منها بناته هو، وربما سيتزوجها سرًا أو يصبح صديق العائلة المقرب منها ومن بناتك.

إنتابني غضب شديد، جعلت أسب الشيطان ووساوسه، ولكن أين هو لأفرغ فيه غيظي؟ ولاأدري كيف حضرتني الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾[التغابن: 14] والآية التي تليها ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[التغابن: 15]؛ فقررت الذهاب إلى الفقهاء الحقيقين الكبار سنًا وعلمًا بالأزهر الشريف لمعرفة المقصود الإلهي وأسباب النزول والتفسير المتفق عليه، حتى أسد الثقوب التي يمكن للشيطان التسرب منها لرأسي.

قررت أيضًا ترك الغرفة والنوم فى مكان آخر، ربما تركني أهنأ بنومي ليلة واحدة، ونبتت فى رأسى فكرة أن أنام بجوار جهاز التلفاز عسى أن يُذهب صوته، صوت الملعون بداخلي..

غضبت زوجتي وأتهمتني بأنها حيلة للهرب من جوارها وإنتقاص من حقوقها الشرعية، وطَلبت من بناتي أن لايتركوني فى تلك النومة التى تعَجبن لها بعد أن حرضتهن ضدي بدعوى الخوف على صحتي.

***

ألهمتني تلك الوساوس الشيطانية فكرة التخلص من مكتبتي العامرة بالمخطوطات النادرة؛ وذلك بإهدائها لمكتبة عامة يفيد بها دارسوا الفلسفة قبل بيعها لباعة «الروبابيكيا» بعد موتي، ولكن هناك خطوة من الضرورة بمكان قبل التخلص من مكتبتي بالتبرع وهي تمزيق صوري

الكثيرة بمناسبة التكريمات التي حصلت في بلدان العالم، ثم إغلاق صفحاتي الخاصة بالتواصل الإجتماعي «فيسبوك» و«تويتر» التي كانت متنفسًا لبعض أفكاري ودعاباتي التي يضحك لها ويسعد المحبون ويسخر منها غير المحبين ويرونها سخافات ثقيلة، وكذا صوري «الفوتوغرافية» التي كنت أراها طريفة جالبة للسرور مع الأصدقاء والصديقات، وقبل هذا وذاك عليّ التخلص من «صندوق ذكرياتي القديمة» خطابات حبيبتي التي حالت الظروف بين إتمام زواجنا؛ صورنا ونحن مبتسمين فرحين نرسم المستقبل السعيد ونختار مسبقًا أسماء أولادنا الذين هم في ظهر الغيب، ومداعباتها التي لا أستطيع نسيانها: أريد أن أملأ الكون أطفالًا منك يشبهونك، وأقول:لابل يشبهونكِ أنتِ أجمل ..

وأيضًا أحرق أوراقًا لإنحرافات أحد الزملاء الذي كان إيذاء من حوله يمثل متعة كبرى له، وذلك لإدانته إذا لزم الأمر.. وكذا أوراق سطرت فيها حماقات ندمت على إرتكابها؛ وما سطرتها كي أدين نفسي ولكن لتكون رادعًا لي بأن لا أكررها إذا ماضعفت نفسي في أمر ما، فكنت أحاول جاهدًا أن أكون مثاليًا في حياتي .

حتى لاتقع تلك الأوراق في أيدي أحد الحاقدين الكارهين لي بعد موتي من عائلتي الكبيرة، أو حتى زوجتي إذا ماعارضها بناتي في رغبة لها وذكرنني بخير فتكون بمثابة تشويه لي ضدهم يبيح لها ماتريد دون معارضتهن.

أومفاجأة غيرسارة يحزن لرؤيتها أهل بيتي أو يعيرون بها؛ إذا مااكتشفها غيرهم ولو بطريق الصدفة، فالصدفة لاقانون لها حتى يمكن أن نتحاشاها .. كما حدث مع بائع «الروبابيكيا»ومؤلفات وأسراراستاذي التي كانت متاحة لمن يشتري من المارة في الشارع.

وقد يرى البعض إن ماأكتبه على «صفحات التواصل» لايليق إلا بشاب مراهق مستهتر، رغم إدعائي ـ كما سيقولون وقتها – العقل والحكمة .. حتى إذا ماوافتني المنية أذهب عن الدنيا ولايوجد خلفي مايحزن أحبائي أو يفرح من كرهوا وجودي بالتندر عليه .. فلماذا أحرص على بقاء من لافائدة منه لغيري بعد رحيلي عنهم؟!

تمنيت مثل أستاذي الذي رحل مبكرًا أن يخبرني الموت قبل نزع روحي بعدة ساعات فقط، ولكن هيهات أن تتحقق مثل تلك الأمنيات.

قفز داخلي سؤال كانت إجابته مريرة: ماذا لو إمتد بي العمربعدما فعلت ماأفكر فيه وأخاف منه؟ سأعيش في عزلة كبيرة خانقة أغلق فيها على نفسي باب الحياة، بعيدًا عن أسباب التطور وماأراه رسالتي التي خلقني اللـه لأدائها في الحياة؛ إطفاء نار الجهل بماء العلم الصحيح والتحريض على أسباب التنوير والرقي ..لن يسمح لي المحبون بمواصلة عزلتي الغريبة في إنتظار الموت فليس ذلك من المنطق السليم، وسيمتدحني عليها غيرهم وسيصفونني بالزاهد الورع مثل كبار المفكرين والفلاسفة كيلا تذكرهم رؤيتي بتفاهة أفكارهم، سأعيش الجحيم الأرضي بإرادتي؟..ستكون أسرتي ضحية هواجسي وربما كان مستقري أحد المشافي العقلية.

مولانا «أبو العصافير»

الصيف هذا العام مجنون الحرارة؛ تتابع موجاته الشديدة بلا انقطاع .. يسيح الأسفلت تحت أحذية المشاة وتنفذ السخونة الحارقة إلى عظام الحفاة، وكأنه أخذ من ليونة حلوى الملبن المسمومة قسوته.

أجسام البسطاء فى الشارع أذبلها الفقد السريع لما بها من مياة، ورغم تطرف الطقس هذا العام، جعلوا يتفاكهون بما يشبه الضحك بشفاة شققها العطش، يشَبْهونه بجماعات الإرهاب أو نار الجحيم: ترى هل سيعذبنا الرحمن الرحيم مرتين؟!

أهل الثراء أيضًا يشكون إرتفاع فاتورة الكهرباء، وكثرة أعطال أجهزة تبريد الهواء.

أحْزَنه أن رأى عصافير كثيرة نافقة، تحت ظل الشجر الحارق، قال فى نفسه: أنه العطش لامحالة، قرر أن يفعل شيئًا، لكن ماذا أفعل؟! قالها لنفسه وقد قفزت إلى رأسه مقولة الصوفي الغريب «أويس القرنى» وهو يعتذر إلى الله عن كل بطن جائع وكل فم ظاميء.

بعد تفكير اهتدى إلى أن يضع لهم آنية ملأى بالماء، ربما أنقذت بعض العصافير من الهلاك المحتوم، وذلك على حافة سور السطح الذي تقع به غرفته البسيطة التي استأجرها منذ استلامه وظيفته، وكان يرى في فراغ السطح أمامها جنة الفردوس، يسهروقتًا من الليل متأملًا

إبداع الخالق فى قبة السماء، يفرد سجادة الصلاة كصوفي يصلى ركعات بلذة روحية لاشاطي لبحرها، وينام سريعًا كطفل هادىء.

كثيرًا ما تتجلى فى مثل هذه الحالة هيئة والده وكلماته، فقد كان يراه ينهض لصلاة الفجر نشيطًا، وهويقول: لصلاة الفجرسحرًالايعادله كنوز الدنيا . يذهب إلى المسجد في برد طوبة القارص سعيدًا مسحورًا وكأنه على موعد غرامي مثير، وكان دائمًا مايقول لنا يحرض أولاده ضد التكاسل: الصلاة هي القدمان التي تخطو بهما إلى الجنة، وقد يتحولا إلى جناحين تطير بهما إلى الفردوس الأعلى، والوضوء نور يضيء لصاحبه الظلمات . فيتمتم: رحمك الله ياأبي فكم كنت عظيمًا في إيمانك.

مع كرور أيام الموجات عنيفة الحرارة، كانت سعادته بالغة وهو يراقب زقزقة العصافير من ثقوب النافذة، رغم لهيب هوائها الذى يؤلم العين، وهي ترقص بجناحيها فرِحة حول الماء، وهديل اليمام الذى قال عنه الأجداد أنه يدعونا لتوحيد اللـه: «كوكو .. كوكو .. وحدوا ربكوا» وعَبِيب الحمام وهو يشرب الماء .

كان عبداللـه المحمود الموظف البسيط بوزارة الأوقاف في نظر زملائه رجل هبط عليهم من زمن بعيد؛ ينادونه لطيبته المفرطة ووداعته وحالة الرضاوالتسامح الذي لا يستطيعه سواه بالشيخ عبداللـه ..

يجعل في راتبه الشهري المتواضع نصيبًا يراه حق الفقراء والمعدمين والعاجزين عن العمل، وكان لايقبل الرشوة رغم كثرتها

وتفشيها وعلانيتها وكأنها حق معلوم لآخذيها؛ فكان بعض زملائه يراه مجنونًا.. إذ كيف يعيش بهذا الراتب الهزيل؟ والبعض يخمن بأنه يعتمد على ميراثه من والده ويحدثونه في ذلك، فكان لايبوح بشيء سوى الإبتسام هامسًا لنفسه: «إحتمال رذائل الناس عبادة لرب الناس».

وكان يراهم موتى يُسألون أمام الله عن هذه الرشاوى التي يفرحون بها، وينفقونها على تلبية حاجيات أولادهم .. ولايستغرب ما يشكوه البعض من جحود وانحراف الأبناء فالسبب واضح وهو سوء المطعم.

علق خلف مكتبه لافتة من الزمن القديم تقول: «القناعة كنز لايفنى» .. وإلى جوارها أخرى تقول:» قضاء حوائج الناس صلاة «فهاج عليه أحد الزملاء السلفيين واتهمه بالزندقة والضلال؛ وأنه يحارب الصلاة فرض الله على عباده .. أثناء العمل وهذا كُفْر صريح . بهدوئه الشديد غيرها إلى أخرى تقول: «قضاء حوائج الناس عبادة لرب الناس».

وكان السلفي كلما مرَّ أمام اللوحة نظر إليها بفخر وزهو المنتصر، وقال منتفخًا بعد أن يمسح على لحيته التى تغطي صدره، وكأنه عائد لتوه من غزوة ضد أهل الضلال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره».

كان عبداللـه المحمود يبتسم دون تعقيب، وقد يضحك بعض الموظفين هازئًا: وقد غَيّرتَهُ ياشيخ أبوالفداء الأثري فلك الجنة .ويسخرآخر: يدخل أبو الفداء الجنة فى تغيير لوحة، ويهزل ثالث: يأتي الشيخ الأثري يوم القيامة، يحمل لواء لوحة عبداللـه المحمود، يقول: أنا غَيَّرتها، فيخش الجنة!

فى مرات عديدة كانت تشتعل المشاجرات، بين الأثري وبعض الموظفين «أعداء الله و حطب جهنم «على حد وصفه – عندما يختلف معهم فى تفسير آية أو حديث نبوي.

الغريب حد الدهشة أنه كان يتعاطى الرشوة مثلهم، وإن كانوا يسمونها «الدخان»، كان يسميها «الشاى» لأن التدخين حرام شرعًا، وعندما أخذ عليه بعضهم ذلك، قال: إن مفتي الديار قد أحلَّها، مادام دافعها يطلب حقه هو، وليس حقًا لغيره . وكان في أحايين كثيرة ينعت بعض فتاوى مفتي الديار بالكفر والضلال، وخاصة ماتتعرض لتنظيم النسل وعمل المرأة وفوائد البنوك . وكان ابن المحمود يراقبهم دون تدخل في النقاش وإذا سأله أحدهم عن رأيه فيما يختلفون فيه، يقول مبتسمًا: اللـه أعلى وأعلم . يراهم جميعًا موتى فى أكفانهم ويهمس لنفسه الآية من سورة الكهف «وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود».

نبتت فى قلب عبداللـه فكرة أن يضع إلى جوار الماء بعض حبوب القمح أوالشعيرأو الذرة الشامية كطعام للعصافير، هش للفكرة جدًا وقال محدثًا نفسه: هى صدقة لامراء فى ذلك، وليس فيها نفاق ولازيف، لكن المشكلة فى جنون الأسعار، والحال ر قيق والراتب الحكومييكفي بالكاد، بعد أن يأخذ الفقراء حقهم، الذي وفقني الكريم لفرضه على نفسي، ولكن ماذا أفعل لتحقق هذا الحلم؟

استدعى حديث العصافيرأيامًا يذكرها بالحب والحنين، عندما كان صغيرًا ويذهب إلى الحقل مع والده، اغمض عينيه وجذبته الذكريات

إلى الماضي عشرات السنين : كان والدي ـ رحمه اللـه – أول من فعل ذلك، فقد كان يرفض أن يصنع «زوالة خيال الحقل» مثل باقي الفلاحين، لإخافة العصافير وطيور الغيطان وماأكثرها، وكان يعيب عليه الناس ذلك، ويقولون لن تجد ماتحصده ياأباعبدالله، فالطيور لاعقل لها، فكان يردد كلمات المصطفى: «من زرع زرعًا أو غرس غرسًا فأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقه»، ويتمتم: سيكون حصادي كبير يوم يشح الحصاد . فكانوا ينظرون إليه نظرة العاقل للمجنون، رغم استشارتهم له فى أدق شئون الزراعة، وعندما يرونه قادمًا يقولون: جاء أبو العصافير!

ولكن عبدالله سريعًا ما كان يندم ويستغفر، ويطلب الصفح مما فعله مع والده وهو صبي، فقد كان يميل إلى كلام الناس ويذهب ليلًا إلى الغيط، يرشق «زوالة خيال الحقل» وسط الزرع ليخيف العصافير، وهو يقول لنفسه: وهل نجد مانأكله حتى نطعم العصافير؟! كم أنت مجنون ياأبي، من خلقها يرزقها!

ضاق أبوه بصنيعه وكلمه لينهاه عن طيشه، وضرورة ألا يعطي أذنيه لكلام الناس في ذلك.

لاتكن جاحدًا ياولدي، كن رقيق القلب لكل خلق اللـه، يرضى عنك ويرزقك من حيث لا تحتسب.

هل أنت خالق العصافير وطيور الحقل ياأبي؟!

– استغفر ربك ياولدي، خلقها الله الذي خلق كل شيء.

إذن يرزقها من خلقها.

ولكنه سبحانه أمرنا بفعل الخير

– وهل قال لك: أطعم العصافير ياأبا عبدالله؟!

– مابك ياولدي، لاتسمح للشيطان أن يسكن رأسك؟ ثم ربت على كتفه واحتضنه بحنان وقال له: في كل ذي كبد رطب صدقه . هذا كلام الرسول الكريم وليس كلامي، وعندما تكبر ستعرف المعنى الحقيقي لهذا الكلام، وأوصيك إذا علِمته أن تعمل به.

– ولكن ياأبي الحال ضيق كما تعلم، وأرضنا الزراعية محدودة.

ألا ترى أن الآفات الزراعية قد تقضي على المحاصيل فى بعض المواسم؟

– نعم يحدث ذلك

– وهل جعتم، أو بتم في ليلة من الليالي دون طعام؟

– لا أذكر ذلك أبدًا

– إذن اشكر الرازق الوهاب، ولاتفعل ماتفعله مرة أخرى حتى لا أغضب عليك .

فجأة وهو هائمًا في ذكرياته مع أبيه، هجم عليه الحزن كالوحش الضاري، وضرب بكف يده على جبهته، فقد نسي أو أنساه الشيطان

وصية والده وهو على فراش لقاء ربه، أن لايقطع العادة السنوية التي كان يفعلها تلبية لوصية أحد الصالحين فى رؤيا منامية رآها، وهي إرسال سبعة كيلوات من القمح مع أي رجل ذاهب إلي حج بيت اللـه وزيارة رسوله الكريم، نصفها لطيور البيت الحرام والنصف الثاني لطيورالحرم النبوي.

ساعتها إستأذن من عمله وذهب إلى قبر والده، أغرقت الدموع تضاريس وجهه وهو يطلب منه الصفح والسماح، فالمرض الذي ألم به ومكث على أثره في المشفى عدة أشهر، بعد أن أصيب في حادث سيارة إنقلبت بركابها وهو منهم، كان له الأثر السيىء على صحته، أنساه الإنتظام في تحقيق الوصية، وتعهد له بعودتها.

راودته فكرة التنازل عن وجبة الطعام الأسبوعية الدسمة، من الأسماك أو اللحم التي قررها لنفسه، ليجعلها كل أسبوعين أو ثلاثة . وهمس لنفسه: من الرفاهية غير المقبولة والحال هكذا أن أتناول كل أسبوع وجبة طعام دسمة، طوبى للنفس النباتية التى تلتقط الحب مثل طيور السماء، لا النفس السبعية التى تلتهم اللحوم مثل سباع الغابات!

رقص طربًا وتمايل بذراعين مفرودتين على إمتدادهما، مقلدًا بهجة عصافيره وهي ترفرف بجناحيها، أن ألهمه اللـه تلك الفكرة، سجد شاكرًا أن منحه ربه ميزة العطاء، وهمس فى نفسه: للعطاء لذة تفوق لذة الأخذ لو يعلمون، فإن المعطي اسم من اسماء الكريم، فما أجمل أن نتخلق بأخلاق خالقنا، كما أوصانا أهل الصلاح والتقوى.

كانت نفسه تضيق حين يهجم حمام «الغِيَّة الخشبية» بالسطح المقابل لمسكنه على مائدته العصفورية، فلها صاحبها الذى يتعهدها بالرعاية، فما الداعي للدَّغرة وأَخْذُ الشَّىءِاختلاسًا، والأكل على كل الموائد، فهذا جهد المقل لإطعام العصافير واليمام، ولكنه كان يتقبلها على مضض، ففى هشها تخويف للجميع، وانصراف عن مائدته، خطر بباله أن يكلم صاحب الحمام ليحبسها، ولكنه تراجع حين ترآى له وجه أبيه وهو يقول له عن طيور الحقل: فى كل ذي كبدٍ رطبٍ صدقة.

***

عندما لاحظ صاحب الحمام تزاحمه على المائدة العصفورية، جن جنونه واشتعل غيظًا، وأيقن بما لايدعو للشك بأن هذه حيلة خبيثة، لإصطياد الحمام وذبحه وأكله أو بيعه، وقرر معاقبته بشكل يجعله يتوب عن هذا العمل الشيطاني، ويقلع عن هذه الأفكار الإبليسية! فكر فى باديء الأمر أن يذهب إلى قسم الشرطة للإبلاغ ضد هذا الملعون صائد الحمام، لكن بمشورة أصدقائه نصحوه بإقتحام مسكنه وتحطيم كل مابه ونهبه، بعد التفتيش الدقيق إذا وجدوا حمامًا مذبوحًا فى ثلاجة طعامه.

وقال آخر: ساعتها يجب تحطيم عظامه، وتمزيق لحم جسمه الذى نبت من إلتهام لحم الحمام، ليعلم أن طريق الشيطان لا يأت بخير، ومن يتبعه خاسر . وأقسم آخر أنه يعرف هذا النوع من البشر، وأن

انحرافاتهم لاتقتصر على صيد الحمام وإنما صيد النساء المنحرفات مثلهم، ليتناولوا معًا فى سعادة مجانية أشهى الوجبات، وبعدها يدلهم إبليس عما يفعلونهمن مساخر، بعد أن يفعل بهم لحم الحمام اللذيذ فعله . هاج صاحب الحمام وماج لهذه الكلمات الملتهبة، وأقسم أن يقتله وكأنه ضبطه متلبسًا مع أمه.

طرقات عنيفة على باب المتهم بصيد الحمام، دخلوا الغرفة، أدهشتهم حالة البساطة الشديدة التى تقترب من الفقر، فتشوا كل شيء، قلبوا كل شيء، ظنهم من قوات الأمن لغلظة تعاملهم، وإن أحدً وشيء به كذبًا، فكلما سألهم عما يفعلونه زعقوا بوجهه:اخرس ياقذر؟! همس فى نفسه مستسلمًا: يفعل الله مايريد .

لم يجدوا فى ثلاجة الطعام القديمة الطرازجدًا، سوى قطع من الجبن الأبيض، وحبات الطماطم، والفلفل الأخضر، والباذنجان الأسود، وأرغفة من الخبز الأسمر.

سألوه فى غلظة: أين الحمام المذبوح والمطبوخ؟

قال مدهوشًا: أى حمام ياسادة؟! أنا لا آكله فهو غال الثمن، وليس فى مقدوري شراءه.

قال أحدهم متهكمًا: غال الثمن؟ وهل تدفع له ثمنًا، سوى حبات القمح والشعير يالص اللصوص؟

أخرسه الإتهام، وقال بعد أن ثبت جأشه: يعلم الله أن.....

- اخرس ياشيطان وهل مثلك يعرف اللـهَ، وقسمًا باللـه الذى تتكلم عنه، لولا أنك كبير السن لحطمنا أسنانك التي تلتهم بها الحمام .

وكزه صاحب الحمام في صدره بغيظ، وقال آخر: دعه قد يموت فى يديك فيُحسب علينا رجلًا، وأغرق أحدهم وجهه بكوب ماء وجده أمامه، ثم انصرفوا عازمين على تقديم شكوى ضده، عندما أخبر أحدهم أن له صديقًا يعمل فى قسم الشرطة ولكنه «بلاعة «، فقال صاحب الحمام: يأخذ مايريد حتى أحمي «غِيّةَ الحَمام «من اللصوص.

كعادته في كل ضائقة يطل وجه أبيه وكلماته العجيبة: إعلم ياولدي، إذا سلط اللـه عليك رذائل خلقه فتلك منحة لا محنة، فلا تنظر إلى فِعل الخلائق معك على أنه فعلهم، ولكنها رسالة من الخالق إليك، ليمحصك وينقيك من الذنوب والخطايا ويقيم عليهم حُجة الظلم الذي نهانا عنه، ففتش في داخلك ونظف ثوب قلبك.

في قسم الشرطة سأله صديقهم «الأمين» ساخرًا، وقد القموه مايُشبع نَهمه الذي لايشبع: كيف جاءتك تلك الفكرة الجهنمية، وأنت موظف بوازة الأوقاف الإسلامية؟! وضغط على حروف كلمة الإسلامية وكأنه إتهام فى عقيدته.

وعندما أخبره بقصد مايفعله وأنه لايقبل على الإطلاق أكل الحرام، تهكم هازئًا مقهقهًا: عصافير؟! عظيم عظيم جدًا يامولانا أبا العصافير،

وفر كلماتك لتحقيق النيابة العامة معك، وما أرى قرارها إلا تحويلك إلى مستشفى الأمراض العقلية؟ ثم أمر بإيداعه الحجز مع المتهمين بالسرقة والإغتصاب والقتل وتسهيل الدعارة وغير ذلك حتى يتم العرض على النيابة.

رغم سوء ماينتظره إلا أن كلمة رجل الشرطة له «ياأبا العصافير» جعلته يبتسم إبتسامة عريضة، وأحس بحالة من الرضا الغامرترفرف على روحه، فهذا وصف الناس لأبيه، وأنه بذلك يحقق وصاياه التي توجب رضا اللـه، غير عابيء بما سيحدث!

إبتسم أمين الشرطة لصاحب غية الحمام وقال: لن أعرضه على النيابة إلا غدًا وتلك مخالفة قانونية سأتحملها على عاتقي من أجلك أنت، بل وسيرى الليلة من أوباش الحجز مالم يره في حياته من إهانات وإيذاءات بدنية، كل ذلك سيحدث بعد أن أذهب إلى بيتي فأراك قد أوصلت إليه قفصًا معتبرًا من الحمام، أم تراك تريد أكله والتلذذ به وحدك يابخيل؟!وأتبع ذلك بضحكة فجة.

بعد إنصرافهم من قسم الشرطة ضاق صاحب الحمام، وجعل يلعن ماأقدم عليه قائلاً: إن ماالتهمه «الأمين» من النقود ثم قفص الحمام والذي أراه بداية لإلتهام كل ماعندي، يفوق بكثير ماسرقه صائد الحمام لعام كامل . هذا إذا كان سرق حقًا، فأنا لاأعرف عدد الحمام، واستدرك قائلًا: اكاد أجزم أنني ظلمت الرجل واتهمته ظلمًا، وأن اللـه ينتقم له من إتهامي الكاذب، وضرب رأسه بكلتا يديه وفكر في التنازل عن البلاغ.

حذره اصدقاؤه وقالوا: أن معنى سحب البلاغ أنه كاذب، وستُدخل نفسك في دوامة لا آخر لها، دع الأمور تمضي وكن حذرًا فيما بعد قبل إتهام أحدًابأي شيء.

فرح زملاء العمل في وزارة الأوقاف فيما حدث لعبدالله المحمود، وقال بعضهم شامتًا: الآن ظهر على حقيقته مولانا الشيخ عبدالله سارق الحمام، وكان يرفض الرشاوى وكأنه الرجل النظيف التقي الورع الوحيد في الدنيا، ونحن أولاد الكلب اللصوص! وضحكوا كثيرًا من أكذوبته فى التحقيقات التى لايصدقها طفل، بأنه كانيضع القمح والماء ليطعم ويسقي العصافيروليس لصيد الحمام!وقال آخر: وأنا الذى كنت أتعجب من تورد وجهه وقوة بنيانه، وكأنه يعيش عيشة عِلية القوم، والحقيقة أنه يعيش عيشة الحمام، حقًا ياسادة أكل الحمام يفعل بالإنسان الآفاعيل وخاصة إذا كان مسروقًا.

بعد التحريات الدقيقة ظهرت براءته، وفي آخر ليلة له فى محبسه رأى في نومه عجبًا، رجلٌ طويل القامة يرتدي ثيابًا بيضاء اللون، يشع النور من تضاريس وجهه وكأنه البدر ليلة التمام، يقول له: ساحتنا خلو من الحمام ياطاعم العصافيروااليمام وساقيها، حميثرة يشتاق إليك ياأبا العصافير! سأله: من أنت يرحمك الله؟ إبتسم صاحب النوروقال: أبو الحسن الشاذلي ياأخي ابن المحمود، عَجِل ولاتتأخرفالوقت وقتك؟

استيقظ من نومه مدهوشًا، وجعل يحادث نفسه: نعم أعرف الشيخ الشاذلي أقصد أعرف سيرته الطيبة، ولكن لاأعرف لضريحه مكان سوى

أنه بصحراء البحر الأحمر، ومن هو حميثرة هذا الذي يشتاق لي؟ ومن أنا حتى يشتاق لي الصالحون؟ إن الشاذلي يخاطبني «ياأخي» والله ـ سبحانه ـ يقول: إنما المؤمنون إخوة، ولكن من أكون بين الصالحين؟! نعم أعشق الصوفية أولياء اللـه، وأقوالهم وأحوالهم، وأرجو أن أكون خادمًا صغيرًا لهم، أو حبة رمل في جبالهم، قطرة ماء في بحارهم، نجمة بسيطة صغيرة في سماواتهم، ولكن هيهات فالطريق وعر، والمجاهدات كبيرة وثقيلة على أمثالي.

بعد إطلاق صراحه لم يذهب إلى بيته أو عمله، بل قصد ضريح الإمام الحسين بالقاهرة، وبعد أن سكب عبرات قلبه وعينيه وكأنه يشكوماجرى للإمام الشهيد، سأل بعض المشايخ عن مكان ضريح الشاذلي، وسألهم عن الشيخ حميثرة، ضحك بعضهم وربت على كتفه وأخبره أنه اسم جبل، توفي عنده الشاذلي ويرقد ضريحه فى حضنه.

أخذه شيخ من يده توسم فيه ماهو غير عادي، وانتحى به إلى جوار حجرة الآثار النبوية المطلة على الضريح الحسيني، وطلب منه أن يقص عليه قصته.

ما أن إنتهي عبد الله المحمود من حكايته، حتى أقبل الشيخ على رأسه ويديه يقبلهما بشوق وجلال، وهو يقول: مرحبًا بشيخنا الجليل، مرحبًا بواحد من أولياء اللـه! إرتبك عبداللـه ولايدري مايفعل سوى انتزاع يديه حتى لايقبلها الشيخ، ولايدري مايقول سوى: العفو ياشيخنا، العفو ياشيخنا.

ماذا أفعل كي أصل إلى ضريح شيخنا الشاذلي وجبل حميثرة؟

– سأذهب معك إلى جماعة من اخواننا، كانوا منذ يومين يتحدثون في زيارة الشاذلي فقد حان موعد مولده، الذى هو تاريخ موته فى العشر الأوائل من ذي الحجة، ربما جعل لك اللـه نصيبًا معهم.

في الطريق طلب من الشيخ أن يحدثه عن جبل حميثرة ولماذا اختاره الشاذلي دون كل الجبال؟!

قال الرجل: إن شيخنا الشاذلي، كان يدعو اللـه أن يقبض روحه فى مكان لم يعص فيه أبدًا، فجاءه الإلهام إن إرتقاء روحه لباريها سيكون عند حميثرة، وسيرته لاتغفل قولته الشهيرة لتلميذه أبي العباس المرسي عندما عزما على الحج إلى بيت اللـه الحرام، وكانا يقيمان بالأسكندرية: أحضر معنا مايجهز به الميت.

فسأله ولماذا ياشيخي؟ فقال: عند حميثرة ستعلم.

وقُبيل الوصول إلى منطقة عيذاب فى الطريق إلى ميناء القصير حيث السفن التى تعبر بالحجيج إلى ميناء جدة ببلاد الحجاز، يقع جبل حميثرة قبالة البيت الحرام تمامًا. وعندما وصلت قافلة الشاذلي إليه حطت الرحال ليستريحوا حسب أوامر الشيخ، وصعد الشاذلي جبل حميثرة، وفى قمته اتخذ لنفسه خلوة ظل بها ثلاث ليالٍ، بعدها نزل إليهم ليملي آخروصاياه: أوصيكم بتقوى اللـه في السر والعلن، وقلة الطعام وقلة النوم، وترك الشهوات مااستطعتم، واحتمال الجفاء

والغلظة من جميع الأنام، وهجرمجالس الحمقى والسفهاء، ومصاحبة الصالحين والمتقين، وكونوا أهل خير ونفع للناس، فإن خير الخلق أنفعهم للخلق حبًا فى رضا الخالق، وقد وليت عليكم تلميذنا المُرسيي شيخًا لكم فأسمعوا له وأطيعوا تفلحوا، والحمدللـه وحده .

ثم قام يصلي وحده، وفي سجودهأسلم الروح لباريها، وكان مرقده وضريحه في حضن جبل حميثرة.

***

جهَّز أبو العصافير قفصًا به سبعة أزواج من الحمام، وماستطاع حمله من القمح والشعير، وابتاع شجيرة من سوق شتلات الأشجار، محفوظة جذورها المحملة بطين التربة المناسبة، ليغرسها بجوار حميثرة حتى يكسر جفاف المكان . وكذا ماستطاع من التمر والخبز الجاف لتكون غذاء له طوال رحلته، وضعها على الشبكة الحديدية المثبتة على سقف الحافلة التي ستقلهم في رحلتهم لزيارة الشاذلي.

كعادة المسافرين تتوقف الحافلة كل عدة ساعات، ليستريح القوم ويتناولوا الطعام ويؤدون الصلاة، بعدها يستأنفون الرحلة . كان يصعد على سطح الحافلة يأتي بقفص الحمام ليطعمه ويسقيه حتى لاينفق، ويناغيه هنيئًا لكم ستعيشون في مكان لم يعص فيه اللـه، ليتني كنت منكم .

مادهش له ودهش كل أفراد الرحلة، مجموعة من العصافيرقد سكنت غصون الشجيرة التي أخذها معه . لم يجدوا لذلك تفسيرًا

فهتفوا: سبحان الله! لكنهم أدركوا أنهم حيال رجل غير عادي، ماجن جنونهم أن العصافير تركت الشجيرة وحطت إلي جوار قفص الحمام آمنة وكأنها تطلب الطعام والماء، فكان عبدالله يضحك ويخاطبهم:إن نسيت نفسي لاأنساكم .

وبعد استئناف الرحلة تصعد العصافير إلي الشجيرة . وكانوا عند الصلاة يصرون على أن يؤمهم، فكان يعتذرأشد الإعتذاروتنحدر من عينيه دمعات ويقول: ومن أنا حتى أكون إمامكم؟! ما أنا إلا عبدً معدومًا لاحول له ولاقوة.

عندما تكرر مشهد العصافير عند كل استراحة، كانوا ينادونه بجلال وتوقير «مولانا أبو العصافير»، فيبتسم في داخله: حتى أنتم؟ هذا اللقب سيحل محل اسمي!

على غير ماتوقعوا تعطلت الحافلة وعمل سائقها على إصلاحها، بدا جبل حميثرة من بعيد شامخًا، جعل عبداللـه يطيل النظر إليه شوقًا، وقد رأى عجبًا حين تحول الجبل إلى وجه رجل معمم، أبيض اللون واللباس فاردًا ذراعيه، يبتسم أحسن مايكون الإبتسام، وصوته القوى يزلزل قلب عبدالله المحمود قائلًا: أهلًا وسهلًا ياأبا العصافير!

صرخ عبداللـه كالمجنون تاركًا كل شيء، وأطلق ساقيه للريح وكأنه يطير بجناحين: لبيك ياحميثرة، أنا أبوالعصافير.

بينما القوم ينظر بعضهم إلى بعض غير قادرين على الكلام سوى: لاحول ولاقوة إلا باللـه! ماأغرقهم ذهولًا إنفلات الحمام من القفص المَحكم عليهم، وطيرانهم ومعهم العصافير خلفه! فأيقنوا بما لايدعو للشك أنهم حيال ولي من أولياء اللـه الصالحين . حملوا إليه القمح والشعير والتمر والخبزوالشجيرة، مادلهم عليه إلا تجمع العصافير أعلى رأسه، وهو جالس على قمة حميثرة رافعًا ذراعيه إلى السماء يدعو اللـه ويبكي!

عندما وصل إلي المكان دخل إلي ضريح الشاذلي، ودخل فوق رأسه سرب الحمام، قال يخاطبه: سيدي قد جئتكم ومعي ماطلبته مني فهلا قبلته؟ طار فرحًا عندما تركته الحمائم وانتشرت في أركان سقف المسجد آمنة، وكأنها تربت فيه وماتركته قبل ذلك، صلى ركعتين تحية المسجد وشكراللـه أن قُبلت الهدية، ثم إستأذن قائلًا: أبو العصافير يستأذنك ياسيدي ليلحق بعصافيره.

أخذ بعض الماء وحفر لجذور الشجيرة، وغرسها بجوار حميثرة، ومأأن أتم غرسها حتى جاءت إليها العصافير، وسجد إلى جوارها سجدة شكر للـه أن أتم مهمته على خير، وانصرف إلي قمة حميثرة ليضبط بوصلة قلبه تجاه الكعبة المشرفة، آملًا في شعاع من نور الرضا.

***

انتهت أيام المولد وعاد الزوار إلي بلدانهم، وبحث رفاق أبو العصافير عنه طويلًا وفي كل مكان، ولكنهم لم يعثروا له على أثر وكأن الأرض قد شُقت وابتلعته! فاستسلموا لقدرهم وغادروا المكان، لكن سيرة أبو العصافير ظلت حديثهم طوال الطريق وبعد الطريق.

عندما رآه سكان المنطقة من البدو الذين استقروا بها، بعد أن إمتدت إليها أيدي أهل الخير من الأثرياء ببعض بالإهتمام، مثل تحويل ضريح الشاذلي البسيط إلي مسجد كبير وحفر عدة آبارلتوفير المياه العذبة بالمسجد والمنطقة ، ماشجعهم على ترك الترحال وكونوا قرية بسيطة اسموها «قرية أبو الحسن الشاذلي»، وكانت العصافير مطمئنة حوله وهو يطعمها ويسقيها تعجبوا وقالوا: ولي من أولياء الله وجاء لعمران المكان، ولكنهم سألوه:لماذا لم تعد إلى بلدك مثل الناس ياشيخ؟ وهل تحتاج مساعدة منا؟ ابتسم وقال: هل تقبلوني ضيفًا في جوار حميثرة؟

رحبوا به جدًا وكانوا يهدونه لبن الماعز والأغنام والإبل والخبز، لما لمسوه من راحة نفسية تجاهه، ثم بركته التي حلت بمواشيهم.

نسي العمل والوظيفة ومن يعرفهم ويعرفونه، وكأنه قد خُلق يوم مجيئه حميثرة .وكانوا قد سألوه عن اسمه، فأجاب: «أبو العصافير» فلم يعجبوا لما شاهدوه بعيونهم .

ساعدوه في بناء غرفة صغيرة من أحجار حميثرة، تكون مأوى له في حضن الجبل. وكانواكلما مرّوا عليه فإذا هو يصلي أو يقرأ القرآن أو يطعم

العصافير، وكان يصعد حميثرة يتمنى لو يشتد بصره جدًا حتى يرى البيت الحرام، ويكشف صدره ربما صادف هواء قد مرَّ بعطر الكعبة المشرفة.

عندما يوغل الليل في الظلام وينام الناس يترك حجرته، يقف في الساحة بين الجبل والمسجد تارة يدور حول نفسه وأخرى يطوح رأسه ذات اليمين وذات الشمال مردِدًا في لذة يعجز الوصف عن وصفها، لفظ الجلالة: «الله .. الله .. الله .. الله .. الله .. الله .. الله ... الله .. الله .. الله .. الله .. الله .. الله ..الله ... الله .. الله.. الله .. الله ..الله .. الله.

ويردد بعض الأدعية التي تأتيه عفو الخاطر؛ دون حفظ أو ترتيب أوتنميق: اللهم ياحي ياقيوم إغسل أدران قلبي بنور رضاك؟ ياحي ياقيوم بحق اسمك الأعظم تب عليَّ لأتوب؟ أقسمت عليك بك أن تصلحني لك حتى لا أصلح لسواك؟ ياحبيبي إرجم أبليس قلبي حتى يغادره، وعطره بنور وجهك حتى يصلح لبهاك.

من عجائب ماكان يحدث في ليل عبد اللـه المحمود أن حمام المسجد والعصافير والشجيرة التي كبرت وتفرعت أغصانها بسرعة عجيبة وتشابكت لتظل من تحتها جميعًا وكلما كثر العدد زادت رقعة الظل، كانوا يدورن حوله في حلقة منتظمة، يتمايلون معه وماهم بسكارى لكن بهاء المحبوب شديد، أعجب من ذلك أن جبل حميثرة والجبال القريبة منه كانوا يتمايلون وكأنهم في حلقة الذكر، أعجب

من ذلك أن مسجد الشاذلي بمآذنه الأربعة كان يميل يمنة ويسرة وكأنه إعتمر عمامة كبيرة بيضاء اللون على رأسه، وكان صوت كالهمس لايدري من يسمعه أهو نازل من السماء أم صاعدًا من الأرض يردد: الله .. الله .. الله .. الله .. الله ..الله، بينما عبداللـه المحمود مغمض العينين وتسري في جسمه رعشة تهز أوصاله؛ لايحتمل جلال وجمال المشهد، يبكي ويدعو: لاتفتني بخلقك ياحبيبي؛ قلبي أضعف من أن يرى تجلياتك لهم؟.

في ركن من الغرفة البسيطة حفر قبرًا، ثم فرشه بالرمال الناعمة وجعل يختم القرآن فيه، ثم ينام به مثل طفل وديع . قبيل بزوغ الفجر يستيقظ لصلاة ركيعات من الليل، وبعد صلاة الفجر يهجع هجعة بسيطة، ثم يصعد حميثرة يحد بصرة ما أمكنه ربما رأى شيئًا من البيت الحرام، يستنشق الهواء بقوة عساه أن يكون قد مرَّ بالكعبة المشرفة .

ذات يوم افتقدوه في صلاة الفجر، وتعجبوا في الوقت ذاته خلو المسجد من الحمام وكان لأصواته في أعشاشه فى سقف المسجد نغمًا محببًا، بعد صلاة الفجر وعند تنفس الصبح ذهبوا إلى غرفته، فإذا برائحة طيبة تنبعث منها، فتعجبوا وقالوا: أن أبا العصافير أشعل بخورًا طيب الرائحة، ونادوا عليه فلم يرد، كرروا النداء فلم يجيب، فأكلهم القلق عليه؛ طرقوا الباب فلم يرد .. دفعوه بقوة فانفتح أمامهم، فإذا به نائم في قبره ورائحة العطر الطيب تنبعث منه!

قلّبوا جسده فإذا به قد فارق الحياة، تحيروا في أمره، هل يقومون بتغسيله والصلاة عليه أم ماذا؟ أشاروا على مشايخ المسجد في ضريح الشاذلي، فهرعوا إليه ..

عندما رأوا الحمام والعصافير قد تجمعت على سقف الحجرة الصحراوية الفقيرة في مشهد جنائزي حزين وقد بسطت أجنحتها ونكست رؤسها، ومالت أغصان الشجرة عليها وكأنها تحتضنها تيقنوا أنه فارق الحياة! وعندما رأوا أرض الحجرة وقد أصابها الماء حتى ابتلت بأكملها؛ وأثر الماءعلى ملابسه البيضاء ففطنوا أنه قام بغُسل نفسه .. وتلك كرامة من كرامات الأولياء.

أغلقوا الغرفة جيدًا والدموع تغرق وجوههم، حزنوا كثيرًا ليس لفراقه فقط ولكنهم تلاوموا قائلين: كيف غفلنا عن ولي من أولياء اللـه وحسبناه درويشًا بسيطًا، وهو يغرف علومه من أنهار الجنة؟!.. دهنوا الغرفة بطلاء أبيض اللون وكتبوا عليها:» هذا ضريح مولانا «أبوالعصافير» .. رضي اللـه عنه.

ثوابيت العشاق

كان حتمًا عليه أن يرسل (فاكس) بمضمون سيرته الذاتية إلى شركة المقاولات التي تطلب مهندسين أكفاء، بحث طويلًا عن (سنترال) دون فائدة ..

همس فى نفسه: بالتأكيد مع تطور وسائل الإتصالات وانتشار الهاتف المحمول وأجهزة الحاسوب الغيت هذه الخدمة، فما عاد لها جدوى إقتصادية .. وتعجب كيف تطلب الشركة سيرة ورقية فى عصر الالكترونيات ..

قفز إلى رأسه وقلبه في لحظة واحدة مكان سنترال ميدان التحرير؛ فدهش كيف غاب عنه المكان وكان يدخله كل يوم فيما سبق.. بل كان روضة قلبه الأثيرة قبل تغير حياته بشكل مفاجيء، وكذا إنتقال مقر الشركة إلى إحدى المدن الجديدة على تخوم القاهرة ..

إجتاحه الحنين للشوق القديم فاغرورقت عيناه بالدموع واستنكرغفلة نفسه.. كيف نسي بهذا الشكل الغريب مكان مكالماته اليومية لحبيبة قلبه وتوأم روحه؟ وعاتب نفسه بمرارة: ماذا دهاك يامتيم يابن قمر الدين السيد؟! هل فقد قلبك نبض روحه؟ أم تحجر كما تحجرت الحياة من حوله؟ ..

رغم إبتعاد مكانه الجديد عن ميدان التحرير لكن الحنين فرد جناحيه ورفرف قلبه لهفة و قرر الذهاب إليه؛ فالشوق لايعترف بالأعذار أو

المعوقات والقيود .. استقل سيارة وهو يبتهل إلى الله مثل ناسك اضناه الشوق ألا تكون الجهات المسؤلة قد أغلقت السنترال..

بغير ترتيب ولا تعمد وجد روحه تعيد عليه الكلمات الشاعرية التي كتبها لها واسمتها هي قصيدة عمرها؛ وقد كتبتها بخطها الأنثوي الذي يشبه كتابة الأطفال الغضة .. زينتها بإطار ذهبي اللون ورسومات ملونة من التي تجيدها؛ ثم علقتها على الحائط في مكان مميز و كتبت عليها «مُعلقة سماء «وكانت تضحك بثغر لم يخلق لغيرها حُسنه ..وشفتين ترتعشين شوقًا مثل سؤال حائر، طازجتين مثل تفاحتين تقطر شهدًا.

يفيض وجهها عذوبة كوردة ندية ساعة الشروق، وجبين وضاء مثل ضوء شعاع الشمس خلف ضباب الصباح الباكر ..وعينين سوداوين عميقتين مثل بحر في ليلة مقمرة، تميلان إلي الضيق وكأنهما تستعدان لاختراق قلب حبيبها مثل رمحٍ عاشق .. وتقول في دلال: «ليست أقل من نساء معلقات الشعراء العرب؛ بل العكس هو الصحيح ولو كنت في زمانهم ماقالوا ليلى ولاعزة ولا فاطم ولا عبلة، بل كتبوا سماء .. سماء وفقط».. فقلت مازحًا: «ساعتها كنت سأحفر لنا قبرين متجاورين وأقتلك ياحبيبتي وأقتل نفسي؛ ألا تعرفي جنون غَيّرتي عليك؟» .. قهقهت مثل طفلة تلهو وهي تهمس في أذني: «قبر واحد يكفي ياحبيبي وسأكتب وصيتي بذلك..لا أستطيع الموت إلا بين ذراعيك».

معلقة سماء

مابين قلبي والحبيبة

أميالٌ .. وأميالٌ .. وأميالُ

ومن عجب تحاصره ..

تدغدغ نبضه حينًا .. تداعبه

وأحيانًا تجافيه فتبكيهِ

وبعض الحين ترقص في خلاياه

فيطرب في تراقصها

ويعلن ثورة النشوة

مجنون هو الحب..

مجانين هم الأحباب

صوت .....

القلب يطلب حق اللجوء إليكِ

فلتفتحي بوابة الملكوت ..

ولتأمري الحرس الملكي بغمد السيوف ..

ولتفتحي جنة الروح حتى يصير الفؤاد طليقًا وحُرا ..

صوت.....

مسكين قلبي

مسكون بامرأة لاتحويها حروف اللغة البشرية

فماذا يسميها حين يناديها..

ياامرأة مستحيلة

بعدك كل النساء هوامش.

***

أخيرًا وصل لسنترال التحرير؛ حمد اللـه أنه مازال يعمل .. فالباب مفتوحًا رغم غياب البشر عنه، ذلك المكان الذى كان لايكف عن الحركة والازدحـام ليل نهار مثل سوق الحياة؛ صامت كصحراء خالية لاحياة فيه اللهم إلا انفاس موظف واحد كبير السن أمامه جهاز (فاكس) قديم وأحد العملاء.

بمجرد دخوله السنترال الذى يغرس الصمت خنجره فى احشائه، هبت على نفسه نسائم ذكريات قلبه الذى تسارعت دقاته بجنون، وكأنه التقى فجأة بحبيب غاب عنه سنوات طوال وكان قد فقد الأمل في لقياه .. همس دون إرادة منه وقد جحظت عيناه وهو ينظر إليها: «الكابينة 25»، لايدري حتى الآن كيف جمعته الصدفة بها كل يوم مرتين .. واحدة فى الصباح وهو متوجه إلى عمله القريب من السنترال وعند إنتهاء يوم العمل.

كانت موظفة السنترال تبتسم وهى تنادي اسمه: متيم قمر الدين ادخل 25؟

ولدوام الحال كانت الموظفة تنادي الرقم دون اسمه وتنظر إليه مبتسمه، فيعرف أنه المقصود فيدخل الكابينة.

تمتد يده بحنان عاشق ورقة متيم – مثل اسمه – ممسكًا سماعة الهاتف وهو يتلو بيت الشعر الأثير لديه، رغم عدم معرفة شاعره «ابو صخر الهذلي»:

تكاد يدي تندى إذا مامسستها وينبت فى اطرافها الورق الخضر

إنها خطيبته (سماء) المجنونة به مثل جنونه بها، فى الصباح يسمع صوتها فينتشي تفاؤلًا ويرقص قلبه فرحًا؛ فى الوقت ذاته تنتظره سماء قبل موعد المكالمة بقلق الشوق لنبأ سعيد ترجو ألا يتأخر أو تضطره الظروف القهرية أن لايتصل، وكذا عند إنتهاء العمل .. لاينسى كلماتها الطفولية المحذرة عكس طبيعة النساء: «لو شعرت في يوم أنك تحبني أكثر من حبي لك فسوف أقتلك .. حبي لك أولًا».

***

بعد زواجهما كانت النزهة الأولى زيارة الكابينة 25، فقد احتوت انفاسهما الملتهبة ودقاب قلبيهما الراقصة وكانت مستودع أسرارهما.

كان يبتسم لنفسه بعد إنتهاء المكالمة هامسًا: الصب تفضحه دقات قلبه وليس عيونه كما يقولون.

فى أول احتفال بعيد زواجهما كتب على حلوى (التورتة) رقم 25، وسط دهشة الأهل والأصدقاء .. وكانا يبتسمان ولايبوحان بالسر رغم إلحاح الأسئلة ودهشة السائلين وشوقهم لكشف المحجوب.

دخل المكان، ازعجه اللون الداكن الذي يشبه الدم القاني المتجلط الذى طليت به الكبائن المتلاصقة، فبدا مشهدها وكأنها توابيت للموتى يعلوها غبار الصمت وأحزان الفراق.

والمقاعد المتراصة في باحة المكان أمام الكبائن التى كانت لاتخلو من الجالسين فى انتظار مكالماتهم مهجورة تمامًا، معظمها مكسورًا يتكأ على الآخر وكأنها مقابر قديمة متهالكة أكلها الزمن .. فتركها الناس لمكان جديد فتهدمت اركانها بعد أن ولى زمان عزتها .

المقعد الأثير لديه رأه محطم الأرجل، يستند على بقايا المقعد المجاور وكأنها متحف مهجور لتماثيل للعجزة وكبار السن فى العصور الغابرة.

فتح باب الكابينة 25 بيد مرتعشة بعد أن مسح التراب عنه .. وعن الرقم النحاسي 25، ترآت لعينيه صور» سماء» الكثيرة التي علقها على حوائط البيت، وفى كل الغرف وبأحجام مختلفة تتوسطهم صورة الزفاف وابتسامتهما التي يملأها الضياء .. وكأنها قد تجمعت داخل الكابينة، تحسس سماعة الهاتف الصامت .. مسح عنها التراب ثم وضعها على أذنه رغم موت حرارتها، صرخ دون إرادة منه: ألو .. ألو .. ألو ردي ياسماء، ردي ياحبيبتي؟!

زعق الموظف المختص دهشًا: ماذا تفعل ياستاذ، ماهذا الجنون، ممنوع ياسيد؟!

لم ينتبه لزعيق الموظف المختص الذي إضطر أن يذهب إليه لينهاه عن هذا العبث وهو يتمتم: ماذا حدث للناس هل ذهبت عقولهم ماهذا الجنون؟!

أمسك الموظف بكتفه من الخلف، حاول اخراجه من الكابينة وهو يردد: ممنوع يامحترم.

أدار رأسه إليه وجد الدموع تغرق وجهه وكأنه فقد لتوه عزيز لديه؛ أشفق الموظف عليه جدًا فربت على كتفه وسأله: مابك ياستاذ؟ وأخرج من جيبه منديلًا ورقيًا ومسح دموعه بإشفاق وهو يقول: ملامحك تقول أنك بتمام عقلك وعافيتك مالداعي لهذا البكاء الغريب؟!

نظر إليه والدمعات عصية عن التوقف، وكأن ثقبًا بعينيه قد إخترق بئر دموعه .. فاقدًا السيطرة على ارتعاش شفتيه، وتضاريس وجهه التي جعلت تتراقص كطائر ذبيح .. مما إضطر الموظف أن يأخذه فى أحضانه بحنان والد عطوف ..

قال بصوت أسيف مكسور: هذه الكابينة 25 كنت أكلم فيها «سماء» كل يوم مرتين، «سماء» حبيبة عمري خطيبتي وزوجتي ..ثم أجهش بالبكاء وخرجت الكلمات مقطعة بسكين الأحزان «سرقها الموت

وهى تضع جنينها الأول، طفلنا الذي كنا ننتظره فرحتنا الكبرى .. سرقهما الموت معًا، رغم الطبيب المشهور المرتفع الأتعاب فى مستشفى مهيب المنظر حسن السمعة بين الناس».

احتضنه الموظف بشدة وقد اغرورقت عيناه لرقة حاله وهمس فى أذنه: البقاء للـه وحده ياولدي .. ادعو لهما بالرحمة ..

ثم ربت على كتفيه وقال وهو يحاول إزاحة صخور جبال الأحزان عنه: «مازلت شابًا والفتيات أولاد الحلال كثيرات».

نظر إلى الموظف نظرة الممتن لعطفه الراقي وجرَّ قدميه وانصرف دون تعليق.

في عزاء «فينسنت فان جوخ»

بينما كانت جثة الفنان التشكيلي «فينسنت فان» لليوم الخامس طريحة أرض الحديقة؛ بعد أن صوب فوهة بندقيته داخل أذنه وضغط بسبابته على زنادها .. كان كهنة الوقت يختلفون في شأن التصرف فيها، قال أشدهم عتيًا وغلظة بعد أن رفع بأصابعه القصيرة رموش عينيه الطويلة المبعثرة المتشابكة لشدة قاذوراتها ؛ ليتمكن من رؤية من يخاطبهم ويبصق على الجثة: علقوه فى أعلي أشجار الغابة من قدميه كما تفعل «داعش في قتلاها»..

بعد تأمل ساده صمت قليل قال: عجيب أمر هذا القاتل لنفسه! فإن جثته رغم يومها الخامس لا رائحة كريهة لها مثل الموتى العاديين، بل يفوح منها مايشبه رائحة الياسمين! أخشى أن يفتن ذلك العامة والدهماء والجهلاء ويظنوه قديسًا.. اسكبوا عليه الروائح المنتنة الكريهة حتى ينفر الناس منه ويصفونه بالفاسق.

قال من مسح على وجهه مسوح رحمة وشفقة؛ شارحًا حكمة الغليظ ذو الرموش المتشابكة مما علق بها من قاذورات: لتتدلى جثته طعامًا للغربان والبوم والعقبان من طيور معبدنا المقدس، والقطط السوداء التي يشرب دماءهاعبدة الشيطان.

قال قصير القامة أحدب الظهر، الموسوم وسطهم بالذكاء والحنكة: «لادفن لمن قتل نفسه، ولاعزاء»..هكذا ألهمنا المعبود نحن حراس

شريعته، الرأى أن يترك هكذا حتى يذوب مثل ماء النار؛ بعدها ستبتلعه شقوق الأرض وستنبت شجرة الجحيم من ماء جسده المأفون .. فنشعل فيها النار.. هكذا قال السفر التاسع بعد الألف الأول من أسفار المعبود.

بعد وقت جاء خازن أسرار المعبود وكان أطولهم قامة وقد قلوظ قلنسوته الملونة التى تشبه مهرج السيرك؛ وأخرج من تكة سرواله مطوية قديمة من جلد حيوان نافق وفرشها على الأرض، فإذا هي مليئة بالنقوش والأشكال الهندسة الغريبة ورسومات لثعابين وخفافيش ودود الأرض، وأشار إلى أحدالنقوش المزركشة بألوان باهتة، وقال: هذا نقش الأسرارالخاص بقاتل نفسه ..ومعناه كما ألهمني المعبود: «من قتل نفسه في حديقة المعبود؛ فقد فعل ماتفعله دواعش الأزمان المتكررة بغير المؤمنين بهم .. فأجلدوه ألف سوط، وبولوا عليه أبوالًا كثيرة، ونادوا في العامة والدهماء ليلعقوه ويلعنوه ويشكروا المعبود أن خلصهم من شروره؛ فلو طال بمثل هؤلاء الأجل لجدبت الأرض وعقرت النساء وعقم الرجال وحل الخراب الكبير، فإن تأففوا اقتلوهم فذا حق المعبود حتى لايحل غضبه علينا فنهلك».

بينما كهنة الوقت يتشاورون في كيفية التنكيل بجثة من لايروق لهم فعله وجدوا ورقة أسفل ذراع «فينست فان جوخ»؛ إلتقطها أحدهم وجعلوا يمررونها فيما بينهم ليعرفوا مابها، فكانت الصفعة غير المقصودة لجهلهم، كلهم لايعرفون القراءة والكتابة .

صرخ كبيرهم:أحضروا من يفك طلاسم الورقة فنحن كهان اليوم قديسين الغد لايليق بنا أن نقرأ كلمات الفساق المنتحرين، وإنما واحد من الدهماء يعرف القراءة اللعينة.

قال من جاء ليقرأ الورقة: إنها بعض كلمات حكيمة للفنان فينسنت فان.

صرخ كبيرهم ثانية موبخًا القاريء: تقول كلمات حكيمة أيها الأبله؟ وهل يكتب الدهماء والعصاة الحكمة؟ الحكمة مانقوله نحن حراس شريعة المعبود، وأمر بجلده الف جلدة واستدعاء غيره، لكن الرجل رغم قسوة الجلد لم يتأوه أو يئن، كما فعل الحسين بن منصور الحلاج في بغداد حين أمر الخليفة العباسي المقتدربناءًا على ماحكم به قضاته قائلًا: إنا نتنازل عن حقنا في تأليبه للعامة والدهماء علينا، لكنا لانملك أن نتنازل عن حق اللـه فيسحقنا غضبه؛ أن نترك زنديقًا يهذي بكلمات الإلحاد والكفرالبيّن، فليجلد ألف سوط، ثم يصلب وتقطع يديه ورجليه وتجز رأسه ويطوف بها الفرسان على أسنة الرماح في البلاد ليرتدع من يقول بمثل قوله، ثم تحرق جثته وينثر رمادها من أعلى المئذنة المطلة على نهردجلة.

قال مرتعشًا مرتعبًا من جاء ليقرأ كلمات «فينسنت فان» بينما الجلاد يمارس قسوته على ظهر صاحبه: هي فقرات غير منتظمه قال في إحداها «أنني أحاول جاهدًا أن أكون نفسي، ولايهمني كثيرًا هل يقبل الناس أم سيرفضون ذلك».

وقال في غيرها:» لوحاتي لايشتريها أحدٌ الآن وأنا لست مسؤلًا عن ذلك، وسيأتي يوم ويكتشف الناس أن هذه اللوحات أغلى من حياتي فأنا أرسم للمستقبل «.

قهقه كبيرهم فقهقهوا، وقال: ماهذا الخرف والكفر بالمعبود؟ يرسم للمستقبل والمستقبل لايعلمه إلا المعبود، ياله من فاجر!

***

بعد مرور عصورعديدة من تراكم الظلام الكثيف الذى أحاط بالغابة، وغلّف الرؤوس سقيعٌ جمدها مثل كتل حجرية، ظهرت كوة صغيرة نفذ منها شعاع دفء، بعدها جعلت الكوة تتسع والشعاع ينتشرتارة وتـارات يختفي؛ ليعود الصقيع يجمد الـرؤوس كقطع حجرية، رأه الناس في مناطق عدة فوق خريطة هيروشيما و بورما وفلسطين والعراق وسوريا واليمن الذي كان يوصف بالسعيد، واكتفوا بأن جحظت عيونهم دهشة، القليل منهم إستنكرفي العلن وباركه في الخفاء خشية أن تغضب الرؤوس الحجرية.

***

ذات «ليلة مرصعة بالنجوم «إنفتحت أرض الغابة عن سرادق كبير أزرق اللون للعزاء أذهل العالم، زاد عدد المعزين فيه عن مئات ملايين «فينسنت فان» .. صرخ أحدهم في مكبرات الصوت التى هزت قوتها أشجار الغابة والغابات المجاورة، فجاءت الطيور من أعشاشها لترفرف

فوق سرادق العزاء: أيها الأغبياءالراقدة عظامكم الدنسة الآن في جوف الأرض تحت أقدامنا، «فينسنت فان» لم يقتل نفسه، ولم يقذف في رأسه القنابل النووية، إذا كيف يكره الحياة من يعشقها؟!

كان غباء عقولكم يدور مثل دوامة حمقاء في أذنه الوسطى، فيدور رغمًا عنه لشدة دوران حماقتكم .. ولكن من كانوا يدّعون الحكمة والطب وعلم الغيب منكم قالوا: مجنون يعبث الجن برأسه فليعزل عن الناس، وليضرب على أم رأسه بقوة حتى ينسى هواجسه و تهجره الجن والشياطين ..

ولما ضاقت أفهامكم عن معرفة مايريد قطع أذنه؛ من شدة الدوار لتكفوا عن ممارسة الغباء والتلذذ بالصقيع الذي جعل عقولكم قطعًا حجرية، ولكن الظلام تراكم حتى أطبق على كل شيء، واشتد دوار جهلكم برأسه، فوجه فوهة بندقيه الصيد التي كانت معه داخل أذنه ليوقف الدوار العنيد؛ ويحاول فتح كوة ينفذ منها النهار ودفء الشمس ليذيب صقيع عقولكم .

ارتفعت الأكف بالتصفيق والهتاف: يحيا «فينسنت فان «فاتح كوة النهار وجالب دفء الشمس، وليذهب عشاق الظلام إلى ظلمات الجحيم .

بينما كانت الأصوات تهتف بحياته التي فقدت جسدها مذ أزمان الظلام البعيدة، نبتت من ماء جثته التي شربتها أرض الحديقة «زهور الخشخاش «الملونة، وتحمس بعض وجهاء زمن الشمس الجديد

فصنعوا أذنًا كبيرة جدًا تخليدًا لأذن» فينسنت «المقطوعة، وجعلوا لها متحفًا وسط المدينة يضم لوحاته المبهرة التي يتوافد عليه الناس لرؤيتها، وبجوارها وضعوا «زهور الخشخاش» و«فـروع شجرة اللوزالمزهرة» ومن عجب فإنها لاتذبل ولا تجف .. ومنهم من أقام معملًا كبيرًا لعلماء الطب لعلاج دوار الرؤوس المخيف، حتى لاتعود أدمغة الظلام الحجرية للتحكم فى مصائر البشر.

***

كانت الصدفة وحدها وراء حضوري هذا العزاء الغريب، إعتصرني الحزن لطريقة الموت الجسدي القاسي لهذا الرجل المتميز، وهتفت في نفسي:» معذرة فينسنت فان جوخ «، ظنوك مجنونًا تعشش الجن والشياطين في رأسك، وأشاعوا عنك كذبًا أنك قد قطعت أذنك قربانًا لها؛ حين تعرت سوءة جهلهم.

إقترب مني حثيثًا؛ ربت فوق كتفي برفق وهمس في أذني: لكل عصر شهداء يزيحون جليد العقول الحجرية، ويرفعون قدر جهدهم ستار الظلام السميك مثل أسفلت الطرق السريعة؛ ليتنفس النهار وتشرق الشمس، إذا استطعت أن تكون منهم فأفعل فهومن أعظم الأعمال ولاتأبه لرحيل جسدك فالشهداء لايموتون.

المُلقن و«الكمبوشة»

دفعه عشقه الجارف لخشبة المسرح أن يقبل دور «المُلقن» للممثلين؛ تحت فتحة «الكمبوشة» التي يراها المتفرّجون صندوقًا خشبيًّا يقع في بداية المسرح، قد يعجب البعض؛ ممن يجلسون في الصفوف الأخيرة ويحارون في ماهية هذا الصندوق وفائدته .. أما مَن يجلسون في الصفوف الأولى، فيعرفون سر الصندوق حين يخرج منه صوت يهمس لتذكير الممثلين بكلمات أدوارهم في المسرحية؛ ولولا تلك الهمسات المكتومة ربما اختل الأداء لبعضهم؛ لنسيانه بعض كلمات الدور الذي يؤديه.

رغم إجادته فن التمثيل الذي شهد له صاحب المسرح ومخرج مسرحياته ومؤلفها أثناء أداء «البروفات»، وهو جالس على كرسي إلى جوارهم، ومعه أوراق النص المسرحي؛ فقد أكد له جودة أدواته المسرحية، وتمكنه منها بدرجة تفوق الكثير ممن هم فوق خشبة المسرح، ويراهم الجمهور ويصفق لهم؛ ولكن إجادته الرائعة لدور «الملقن» لأدوارهم حين تهرب منهم كلمات الحوار لا تُعوض، ومن النادر أن يجد مثله .. ثم يربت على كتفه قائلًا: صبرًا فإن مكانك فوق خشبة المسرح عندما يتوفر لي «مُلقن» جيد مثلك .

فكان يهمس ألمًا لنفسه: وهل جودتي وتميزي هي سر تهميشي وشقائي وحرماني من الظهور فوق خشبة الحياة؟! ويتمتم في نفسه:

ذلك هو قانون الدنيا؛ ليس التميز والإجادة والاجتهاد هم معيار النصيب فيها، قد يكون رزق الخامل أو البسيط أكثر بكثير من النشيط المجتهد، إنها إرادة صاحب المسرح ومؤلف ومخرج مسرحياته، وما عليَّ إلا الانصياع والطاعة وإلا حرمني حتى من هذا الدور البسيط الذي لا يراني فيه أحد، ولا يعرفني ولو اسمًا فقط، فإعلانات المسرحيات تخلو من اسم «الملقن» رغم أهميته حتى لو كان في آخر الأسماء وبخط صغير جدًا لا يلفت الأنظار إليه.

عاش على أمل أن يتغير مزاج صاحب المسرح، ويختار له دورًا ولو صغيرًا يراه فيه الجمهور، ويصفقون له كما يصفقون للكثيرين غيره.

ظل سنوات يهمس بصوت خفيض للممثلين، ويحفظ جميع الأدوار وطريقة الأداء على أمل أن يتغيب أحدهم ذات ليلة، فيختاره المخرج صاحب المسرح ليؤدي دوره ولو لليلة واحدة، أو ربما يغضب من رداءة أداء أحدهم ويحله محله.

كان يملأ عينيه في كل ليلة من اللافتة التي تملأ واجهة المسرح يعلوها بهيبة وجلال اسم صاحبه ومؤلف ومخرج مسرحياته، وتحته بمسافة كبيرة وبخط أصغر أسماء الممثلين والمساعدين ثم صناع الديكور والإضاءة؛ ولكن كان يحزنه كالعادة خلوها من اسم «الملقن»، ويهمس وهو ينصرف إلى باب الدخول: «إنها إرادة المخرج».

مرت السنون وهو يمارس دور «الملقن» محبوسًا أسفل تلك الفتحة الصغيرة غير المرئية إلا للممثلين الذين تعلو أقدامهم مستوى رأسه؛

واقفًا طوال زمن المسرحية لا يتحرك ولا يعلن ضجره أو يشكو آلام قدميه .. وأن يقبل الهِبات المالية لبعضهم في نهاية العرض لإجادته وأن يشكر لهم صنيعهم؛ رغم كراهيته لقبول تلك الهِبات التي لا يجب أن يرفضها، وهم يربتون على كتفه بامتنان المحسنين، كره أيضًا أن ينادوه باسمه مجردًا، ولا يمكنه أن يذكر اسم أحدهم إلا مسبوقًا بلقب الفنان الكبير أو القدير، ولا ينسى انحناءة الشكر لقبول العطاء؛ والأمل كرباج غليظ يراوده في الصعود إلى جوارهم ولو لمرة واحدة .. ويهمس والغيظ يمزق نياط قلبه: متى تكون مشيئتك كما وعدتني يا صاحب المسرح؟!

ألم تعدني في حال اجتهادي وإخلاصي سيكون لي شأن آخر؟ ربما يفوق من يقول الناس عنهم نجومًا - كما قلت - أما آن لنصيبي أن يأت بعد! نصيبي الذي سيتغير بكلمة واحدة منك. ولكنه كان لا ينسى التحذير الصارم للمخرج صاحب المسرح ذات يوم: «تلك هي شروطي إن أردت، وإلا فاذهب إلى مسرح آخر، واختر لك مخرجًا سواي، دورك الهامشي هذا يرجوه خلق كثير، لكنني اخترتك فلا تك جاحدًا وإلا حل عليك غضبي».

مع مرور الأيام بدأت المسارح تغير من شكلها وتستغني عن «الكمبوشة والملقن»، وقرر صاحب المسرح ومؤلف مسرحياته ومخرجها بدورة مواكبة التطور، وقرر تجديد المسرح وإلغاء الكمبوشة ليتواكب مع التغير الجديد لحياة المسارح.

فرح فرحًا شديدًا منعته سعادته من النوم، فعلاقته بالمخرج جيدة فلم يعصه أبدًا، بل كان ينفذ كل أوامره ويبتعد عن كل نواهيه، وقد امتدح موهبة التمثيل عنده وإجادته وتمكنه منها، بل كان يناديه في كثير من الأحيان بلقب «فنان».

حَلم بجنة تصفق الجمهور عند دخوله لأداء دوره وفي لحظات إجادته، وهجرانه «جحيم الكمبوشة»؛ حلم بأنه سيرى اسمه على «أفيشات» المسرح وفي إعلانات الشوارع، طار فرحًا بلقب «فنان» الذي ينتظره.

ونسي كل الهموم السابقة وقال: «الآن ستتحقق إرادة المخرج وأعيش كما يليق بمواهبي».

بعد أن انتهت التجهيزات الجديدة الشاملة للمسرح، باستخدام أحدث التقنيات العلمية، بدا المبنى كأنه عروس في ليلة زفافها، واقترب ميلاد الحلم الذي طال انتظاره، صعقته شائعة اختفاء «المخرج» دون أسباب واضحة، نشب الحزن أظفاره في قلبه بعد فشل كل المحاولات للعثور عليه.

ما أجهز على حشاشة قلبه؛ اعتزام الورثة تحويل النشاط المسرحي الذي لا يحقق ربحًا – كما قالوا – إلى آخر أكثر رواجًا وربحًا كثيرًا؛ إلى «ملهى ليلي» يحمل نفس الاسم الذي اشتهر به، وفاءً لذكرى والدهم العظيم – كما قالوا.

ذات ليلة مظلمة، استبد به اليأس فلم يجد سلوى إلا زيارة مبنى المسرح، ربما وجد صاحبه قد عاد إليه بعد مانعٍ قهريٍّ يجهله حتى ورثته، رغم يقينه باختفائه المفاجئ، لكنه أمل اليائس في الإنصاف؛ مشى يجر قدميه بخطى ثقيلة، كأنه يخشى مفاجأة الاختفاء الأخير لصاحب المسرح الذي يمثل ظهوره بعث الحياة من جديد ..

لا يدري كيف هجمت عليه حواراته القديمة مع ما سمّاه الناس «الشيخ السلفي» كثيف اللحية قصير الجلباب: لا أزكّي على اللـه أحدًا، لكنني أراك رجلا طيبًا؛ ومن الظلم لنفسك معصية ربك في مسارح الشيطان هذه.

كان الشيخ ضخم الجسم ذا بطن عظيم، وعجيزة كبيرة وثوب أبيض اللون فضفاض، ربما لأنه اعتاد التهام لحم الضأن الذي يفضله ليعينه على زوجاته الأربع، صغيرات السن اللاتي بدّلهن بمطلقاته العديدات .. وعندما عاب عليه ذلك، احمرّ وجهه غضبًا وكاد يشج رأسه، وقال: من حرَّم زينة اللـه لعباده يا كافر!

أخبره أن إحدى طليقاته تعمل معهم في مطبخ المسرح تعد الشاي والقهوة والطعام لمن أراد؛ إلا أن راتبها الشهري قليل لا يكفيها وليس لها من يعولها، وربما ارتكبت ما يشين تحت قهر العوز؛ أقسم أن لا يتركه يعيش في نفس البناية التى يملكها؛ فهو نجس وشيطان في ثوب رجل ضعيف الحال، وحتمًا سيجلب الفقر واللعنة عليهم.

تذَّكر يومًا أراد السلفي – كما كان يقول له – الخير ورضا الخالق والتمتع بملذات الحياة المشروعة وبحبوحة العيش، بدلًا عن الحياة الخشنة التي يعيشها مع زوجة واحدة، شريطة أن يترك خشبة الشيطان هذه، ويتبعه ويطيع أوامره وينفذ ما يطلبه منه دون جدال أو تفكير؛ فملامح وجهه الطيبة تصلح لأن يكون داعية دينيًّا يهدي اللـه به الخلائق لا «مشخصاتي» يضحك الناس .. وعندما قال له: إن خشبة المسرح لها رسالة في إصلاح ذوق المجتمع، فهو أبو الفنون .. هاج وماج وقال: إنك رجل ملعون ولا تصلح إلا وقودًا للنار، أتشبّه أراجوزات الشيطان بالدعاة والمجاهدين يا كافر.

دمعت عيناه وهو يجر قدميه الثقيلتين وتمتم: رقصت على السلم يا أنا؛ فها هو صاحب المسرح اختفى، والشيخ السلفي قهرني على الهرب من مسكني بعد أن نجوت من محاولة اغتيال لي وعيالي بعد أن سلط عليَّ من سمّاهم «الإخوة».

أخيرًا وصل مبنى المسرح، أدهشته زخارف الواجهة الجديدة والإضاءة المتعددة الألوان، وصورة ضخمة لراقصة معروفة اختفى خلف جسمها شبه العاري اسم صاحب المسرح، وتحت قدميها كلمات بخط أحمر اللون تؤكد أن الافتتاح الكبير سيكون خلال أيام قلائل.

حملق طويلًا في المشهد الجديد، ثم تسلل عبر نافذة خلفية للمبنى، فهو يحفظه شبرًا شبرا؛ علق حبلًا طويلًا عل هيئة «مشنقة» بإحدى

العوارض الحديدية المخصصة لتعليق مصابيح الإضاءة الملونة في سقف «المسرح الجديد» الذي ستعمره الراقصة المعروفة؛ ربط الحبل جيدًا ثم نزل إلى خشبة المسرح، شلال من الدموع يغرق تضاريس وجهه، أحضر كرسيًّا وقف عليه تحت «المشنقة»، خاطب الكراسي اللامعة الجديدة في الصالة الكبيرة، انحنى نحوها والتصفيق الحاد يغمر المكان، ويكاد من شدته يصم أذنيه، صرخ بأعلى صوته الباكي: انتهت الرواية .. انتهت الرواية .. أين أنت يا صاحب المسرح ومؤلف رواياته ومخرجها؟

وضع المشنقة في عنقه؛ ضرب بقدميه الكرسي، فانزاح بعيدًا، تدلّى جسمه يتلوى من عنف الألم .. دقائق؛ سكن الجسد، راحت بسكونه أوجاع وأحلام «الملقن».

حور العين

إنفلت زمام الوقت، إنبجس القبرُ، سمع منادٍ يعلو منه الصوت شيئًا شيئا: «هيا إنهض ياعبد الواحد، تلك قيامة كل الناس، قم من شرنقة الطين الراكد هيا؟». نفض تراب الزمن الغابر فوق الرأس، فوق عظام الجثة، حملق فى كل الأنحاء الكون خلاء.

مسح العينين كثيرًا، عل تراب اللحد الضيق أثر فيها أغشى الرؤية، فلوات فى فلوات فى فلوات شاسعة الآماد، الأبعاد، سوى جبل باد، أين الناس؟ زعق بأعلى الصوت: يامن كنت تنادي أين الناس؟! فلوات لاتنظر عينيّ سواها، ماكنت أحب العزلة يومًا، بل ترهبني وتغير مجرى دمائي، تسكب قارورة أحلامي فى جب الخوف.

يامن كنت تنادي لاتتركني وحدي، ليست براهب أو شاعر، أو أدّعي الفلسفة، الحكمة أو سوء النية بالخلق بل كنت أحب الكل، النسوة والأطفال بل والأفاقين والشرفاء، فكلٌ يا هذا خلق الله وماشاء يكون.

الصوت يردد: «قم ياعبد الواحد، قم».

ظن جميع الخلق وراء الجبل البادي، نهض سريعًا، لكن أغرب ما أدهشه كيف اكتست عظام هيكله العظمي لحمًا، حين امتدت يده تزيح تراب العفن البالي فوق الجثة، أقصد فوق بقايا الهيكل، لم يبصر حين صعود الجبل البادي شيئًا!

زعق بأعلى الصوت: يامن كنت تنادي أين الناس؟!

ضاع الصوت، تبدل طقس الجو الصافي تعكر، قامت عاصفة هوجاء، يذيب الجسد حرور قاتل.

تحمله ريح، يعلو، يتكور، يسقط فجأة، جعل يحملق يزعق: أين القبر؟ أريد القبر .

نادى الصوت: قم ياعبد الواحد قم . باستكار ردد: قم؟ وجلدي كالدهن المشوى يذوب!

- قل من أنت؟ أأنت الله؟

- حاشا بأن أدعي بأني هُوْ، ليس كمثل إلهي شيئا!

- سَكِّنْ تلك الريح رجاءً؟

سكْن الريح، لكن بركان لهيب الطقس يدور، نافورة حيرة فى رأسه إندلقت منها أسئلة دون جواب: أين اللـه، أين الناس، أين الجنة، أين النار، بل أين القبر، أريد العود إليه؟! هذي دون مراء النار، ودون حساب، دون ميزان ألقى فيها؟!قد كنت أصلي، أصوم، أزكى وأحج البيت، ماكنت أنم ولا أغتاب وأشكر ربي.

غير هواجس صدر شبابي ندمت عليها، وقال إمام القرية شيخ المسجد عبد الباسط: لو كان الندم سليمًا ثق أن الله سيعفو عنك.

وأقسم إن الندم سليم، لكن عملي الطيب لايجبر ربي بأن يغير ماقد يقضي، وإلا أصبح عمل العبد هو السلطان، مامن أحد جوف النار يؤانس وحدتي الوحشية؟!

هل سامح ربي كل الأشرار، الفجار وقطاع الطرق، الأفاقين، وعلماء السلطان، ومن نهبوا نذور الشيخ الواصل، تجار السوق السوداء، من سرق الدعم وولى، من قتل الناس عيانًا، حتى إبليس؟!

ليتك ربي لبيت دعاء الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، حين دعاك تضخم جسمه حتى يسد النار وينجو الخلق - هكذا قال وبالحرف الواحد عبد الباسط شيخ المسجد - وبرر قولته بأن العالم مقهورًا فيما يفعل.

رمال الأرض تذيب القدمين لهيبًا، يقفز، يصرخ: عفوك يامن ليس لأحد عفو سواه .

(رجل بثياب بيضاء اللون، معمم بالسندس والإستبرق، الوجه يشع النور، العينان الكحلاوان تقول: اللـه، اللـه)

- خذني رجاءً يامولانا؟

- فلتهدأ ياعبد الواحد أسكن لا تفزع، من أهل الجنة أنت تكون بإذن الحق.

(تعلق فى أطراف الثوب الأبيض لكن الرجل إنحل بخارًا)

ردد فى فرح بالغ: «من أهل الجنة أنت تكون»، لحيظة وارتد الحزن سريعًا أين الجنة؟ لهيب الكون يزداد لهيبًا، أيكذب هذا الرجل رغم البِشْر الناطق فى عينيه؟!

عصفورٌ أخضر بسماء الكون يحلِّق، امتد جناح العصفور إليه صار بساطًا يحمله، يعلو شيئًا شيئا، فى مرمى البصر شجيرة، حط العصفور جوار الجذع، تعجب ماهذا الجذع الهائل طرفي لايبلغ أقصاه، هل كانت عينيّ كليلة حين رأيته؟!سبحانك ربي تصنع مالا رأت العين ولا خطر بقلب الإنسان!

وجد الشيخ الأبيض مبتسم الثغر، مدَّ يديه بكوب من ماء بارد أطفأ ظمأه، بل سكب على رأسه حتى قدميه، كساه الرجلُ ثيابًا بيضاء اللون.

«حين أذابته نار الطقس فى مرجلها القاسى بالصحراء، بهت اللون تغيَّر، جعل يمد أصابعه ليقتلع أسنانه، ما كان يطيق وجودهما فى فِيه، يجذب شعر الرأس بقوة، كتل من نار لاتسقط .. حين شرب الماء سكنت عاصفة التعذيب، حين سكب الماء عليه صار جميلًا».

من أنت، ماسرّ الماء البارد، وماهذي الشجرة؟

– أنا عبد الله، وذا ماء الكوثر، وهذي الشجرة أصل الجنة، فلتصعد ياعبد الواحد.

مدَّ يديه، إمتد الغصن إليه بساطًا، أخذته الحيرة، مسح العينين كثيرًا.

فوق الشجرة أنهارًا من لبن، من عسل، من خمر، فى جوف الأنهار مراكب، رجل وامرأة، رجل وامرأة، فاكهة لم يرها من قبل، أهداه غلام ثمرًا منها، جرت النشوة فى أوصاله حين ابتلع أول قضمه، جعل يحلّق فى بحر اللذة .. كان السيد عبد الواحد مزواجًا يغير فى العام الواحد امرأة وامرأتين، تمنى امرأة في قارب، مال الغصن به نحو النهر، القارب امرأة تبتسم إليه، رويدًا أنزله الغصن إليها، جعل يلاطفها يماحكها يتلمسها يتحسسها ويقبّلها، ماأعظم خلقك ياربي، ماهذا الحسن القاتل! العينان الحوراوان، الشعر الذهبي المجدول، الجِيد الفارع كالأبريق، لماذا يخلو الكون بأثره من واحدة منهن؟

فرّق بين ذراعيه لملمها، نامت كالقطة فى حضنه، جعل يقرّبها بقوة.

طارت عينيه شرارًا حين لطمته الزوجة قائلة:

مابك يارجُلي الأعظم، تخطو نحو السبعين من العمر وتقلق نومي كي تفعل مايفعله الصِبْية؟!

قفز يهرول وسط الحجرة:

أين بنات الحور؟

أين الرجل الطيب؟

أين الجنة، أين الجنة؟

أنتِ طالق ياحرباء ورب الكعبة.

البحث عن زوجة السباك

ضرب جميل عبدالله رأسه بحائط الغرفة الخشبي بالفندق الشعبي المطل على المسجد الحسيني بشدة وغيظ والدموع تنهمر من عينيه، فزعت الزوجة من نومها، وجحظت عيون اطفالهما مدهوشين لما يحدثه رجل الأسرة من إضرار بنفسه .

صعد «خليل» كاتب الفندق عندما ترامى إلى سمعه صوت الطَرقات وهو يتمتم: ماذا حدث اللهم اجعله خيرًا؟ تجمع نزلاء الغرف المجاورة للوقوف على حقيقة تلك الطَرقات العصبية المتتالية .

الصوت الوحيد الذي كان يصدر عن جميل عبدالله حين يتراجع للخلف، ويندفع مصوبًا رأسه الذي سالت منه الدماء نحو الحائط فى شبه جنون: أنا السبب، أنا السبب!

حاول خليل أن يمنعه عن إيذاء نفسه، وأخرج منديله القماش وجعل يمسح دمه:

- هذا قدرك والحمدلله على كل حال، وربما ذلك فداء لشيء خطير كان سيحدث.

أنا السبب، أيكون هذا جزاء من يفعل الخير؟ ولكني لن أتركه وسأعثر عليه ولو كان فى كبد السماء.

استغفر ربك أنك رجل مؤمن؟

- مؤمن؟! أيكون ذلك جزاء الإحسان؟

– افعل مايحلو لك، ولكن بعد أن تهدأ، وتكف عن هذا البكاء، وهل يبكِي الرجال لتلك الأشياء التافهة؟! ستهلك نفسك يارجل، وجهك غارق بالدماء وملابسك البيضاء اتسخت بها.

انتفض جميل وكأنما قد لدغته حيّة:

– ماذا تقول أيها المجنون، ملابسي إتسخت، وهل دمي قذر؟

لم يفهم المتحلقون يتابعون حوارهما السر فيما يشاهدون، وماترمى إليه تلك الكلمات؟ لاجواب لحيرتهم غير هذه العبارات غير المفهومة، فملامح الزوجة جامدة لاتنم عن شيء، سوى الصمت ومتابعة مايحدث وكأنه لايخص زوجها، والأطفال لايكفون عن البكاء والفزع . سأل أحدهم:

– ماذا حدث ياخليل؟

– لاشيء، سُرقت نقود جميل

– عددها كثير؟

– علم ذلك عند جميل.

لم يقصد جميل عبدالله بكلمة «أنا السبب» معناها الذى أشار إليه بفعل الخير، لخجله عن التصريح به أمام الناس والزوجة والأولاد، وإن كانت زوجه على معرفة تامة، ولكن لطيبة فى طبعها الذى يألف الهدوء حد الخمول واللامبالاة كانت تلتزم الصمت، فهمها الشاغل

امتلاء المعدة والشكر على النعمة، والنوم بعمق وإخلاص، فلله فى خلقه شئون ولا داع للإزعاج.

بيضاء اللون مشوبة بحمرة وبهاء، تميل إلى القصر قليلًا، عظيم البطن، تكتنز من الشحم واللحم مايجعلها تقوم من جلستها على مراحل، تبسط كفيها على الأرض أو تتشبث بكرسى، ثم ترفع عجيزها الضخمة فى الهواء، بعدها تتكأ على ركبتيها، وترفع صدرها الممتلىء شيئًا فشيء، وبعد أن تقف بعون الله وسيدنا الحسين – على حد قولها حين تحاول الوقوف طالبة منه العون –: ياسيدنا الحسين؟ بعدها تسند براحة كفيها أسفل ظهرها فى محاولة لإتمام وقفتها .

كانت فيما مضى وقبل زواجها يسمونها «الغزالة» لرقتها ونشاطها وقوامها المتناسق، وذلك ماجعل «جميل عبدالله» يجن بها، بل عمل على إفساد خطبتها من غيره، وفاز هو بها، وكان يباهى بذلك قائلًا بعد أن يمسح على صدره بغرور الواثق: عندما يريد جميل عبدالله لاراد لما يريد ويشاء . ذا طيبة وعفاف، تشهد سيرتها وعراقة أصلها بذلك، وذلك ماحدا بها لإلتزام الصمت والصبر على أفعال زوجها المجنونة تنفيذًا لوصية والديها: «السيدة العاقلة تغفر لزوجها وتدعو له بالهداية».

بعد أن هدأت ثورته بعض الشيء، حاول جميل إفهام الناس أنه أهل الفضل وأهل الإحسان، ولكن الثمرة جاءت فى أرض سبخاء

أو حقل علقم فماتت، بل إنقلبت إلى حرباء التفت حول عنقه لتقتله، وكأنه يقول: إياكم وفعل الخير، ولا يأمن أحدكم لأخيه.

صرخ جميل فى وجه الزوجة بعد أن ضرب الأولاد قائلًا: ياأولاد الكلب.

وكأنهم المسؤلون عماحدث! وزعق فيها:هيا يااستاذة النوم وامتلاء الكرش؟

طرقت الكلمات أذنيها وكأنما لدغتها حيّةً، شعرت بالذلة أمام الناس، لماذا؟ فهى كثيرًا ماتسامح حتى اتهمها بالبلادة، لاتدرى ربما لضحك بعضهم ساخرًا، ربما لأنه الوحيد المجرم الذى يتظاهر بالبراءة، ربما لأنه قد بلغ السيل الزُّبَى و لم يعد فى قوس الصبر منزع.

قالت ساخرة دون مبالاة لعواقب: مابك يارجلي، علام هذا كله؟! أأنا التى كنت أذهب اليها فى غرفتها؟ أأنا التى كنت أغافل زوجها، وأجلب لإبنتها الحلوى كي تلهو بها بعيد عنكما؟! أأنا التي كنت أشتري أشهى الأطعمة وأصر على أن نستضيفها لتأكل معنا، ألم تكن قد خططت لسفري والأولاد إلى البلدة، وبقائك هنا إلى جوارها بحجة قضاء بعض الأعمال المهمة التى لايمكن تأجيلها، لاداع لكي أفصح أكثر من ذلك ياجميل؟!أتراني غافلة عن ألاعيبك، وأنا التي أتظاهر بعدم الفهم ربما هداك الله، وقالت للمرة الأولى – مخالفة وصايا والديها – طلقني لو كنت رجلًا شريفًا كما تدعي؟

جن جنونه وكأن مطرقة من حديد ساخن سقطت على رأسه، فهو يعرف جيدًا أنه لايستطيع أن يطلقها، فالنعيم الذى يرفل فيه والأموال التى يتغندر بها ولايخشى معها الفقر ميراثها عن أبيها، وقد كان فوزه بالزواج منها وهي وحيدة والديها مسار حسد من الناس وخاصة إخوته بسطاء الحال.

لم يسمع منها كلامًا ثقيلًا مثل هذا فيما قبل، حال الناس بينهما بعد أن هجم عليها وزعق يداري خجله، فلم يتوقع منها رد الإهانة كعادتها، فقد كانت فى مثل هذه المواقف تهز رأسها ساخرة وتذهب بعيدًا عنه، قال حانقًا: حسابي معك شديد يانصف جاموسة.

تدخل الحاضرون، قال بعضهم: ليس هكذا يكون التفاهم أمام الأولاد والناس ذلك عيب كبير عليكما .

وإن كانوا يشتهون الوقوف على تفاصيل القصة التي إقتربت من الظهور، ربما إرضاء لغريزة التشفي فى اصحاب الذنوب، الذين يظهرون أمام الناس أبرياء وشرفاء.

***

انفجرت ماسورة الصرف الصحي للفندق العتيق، ومعها انفجرت المشكلات لعل أهمها بل وأبقاها أثرًا ضياع أموال «جميل عبد الله» . كعادته مذ سنوات وبتكرار يومي لايتغير يقبع «خليل» كاتب الفندق

خلف مكتب عتيق بعمر الفندق، يسجل اسماء النزلاء في الدفتر المعد لذلك، بعد أن يتأكد من تحقيق الشخصية خاصة من تتبعه أنثى، فلابد وأن يثبتا صلتهم الشرعية بكل الطرق الرسمية الممكنة، تحسبًا لأية تفتيشات أمنية، فلا يرغب فى أن يقع تحت طائلة القانون بأي شكل من الأشكال.

نحيل الجسم خمري اللون يميل إلى السمرة، طيب القلب لايحمل بداخله ذرة حقد على مخلوق، ما أن يرتفع صوت الأذان حتى يتوضأ ويلحق بصلاة الجماعة، والتي يختتمها بزيارة ضريح الإمام الحسين داعيًا اللـه بالستر والرضا متشفعًا بآل البيت الأطهار، مرددًا: إن لمولانا سرٌ لايعرفه إلا من رضى اللـه عنه .

لاينتزعه من مكانه خلف المكتب العتيق نازع، سوى طلبات النزلاء من الشاى والقهوة وتدخين النرجيلة، فقد حوّل بهو الفندق بعد أن وافقت صاحبته إلى مقهى خاص به . لايعكر صفوه إلا إرتفاع سعر السكر أو قلة النزلاء فى يوم من الأيام، وبعدها قل على الدنيا السلام، فالفندق هو مركز حياته فيه يعمل ويبيت، فقد كان بلا زوج وكلما حدثه أحد فى هذا الأمر يقول: لم يأذن اللـه بعد.

دخل جميل عبدالله يجر فى يديه أولاده الثلاثة وخلفهم الزوجة، شاب يبدو أثر النعمة عليه، معتدل القوام تسمع له إذا تكلم؛ خفيف الظل فكهٌ فى ملاحظاته وإن كان من عيبوبه كثرة القصص الملفقة من نسج

خياله؛ والتي هو بطلها الذكي المنتصر دائمًا؛ يباهي أنه فعل مالم يفعله أحد ولايستطيع، ولكن اللـه قد تاب عليه وهداه، يذكر دائمًا كذبًا أنه قد ورث من الأموال الكثير؛ حتى لايبدو أنه يعيش عالة على ميراث زوجته.

يحب هذا الفندق الشعبي البسيط لأنه ورث تلك العادة عن المرحوم والده؛ حيث كان يصحبه إلى هذا المكان دائمًا كلما جاء إلى القاهرة، ليشترى أنواع العطارة التي يملأ بها دكانه فى البلدة، تبركًا وتيمنًا بجوار مولانا الحسين ولي النعم، لايذكر جميل مسألة العطارة هذه حتى لايبدو والده فقير الحال، ماأن يسمع الأذان وخاصة إذا كان بهو الفندق مليءً بالنزلاء، حتى يبادر للصلاة مكررًا جملته الأثيرة لديه: إن اللـه سبحانه وتعالى قد اعطاني الكثير، فلا بد أن اعطه حقه في الصلاة.

رحب به خليل أيّما ترحيب، وداعب أولاده كل باسمه ورحب بزوجه بمايليق بسيدة أصيلة .

سأله جميل عن سبب المياه التي تتسرب إلى بهو الفندق، فأخبره أن «ماسورة» الصرف الصحي قد انفجرت منذ ساعة، ولايدري ماذا يفعل إنها المرة الأولى، ولابد من وجود «سباك» ماهر لإصلاحها.

نهض أحد الجالسين فى بهو الفندق، إقترب من خليل وهمس له: أنا عملت سباكًا فى البلاد العربية أكثر من عشر سنوات، وعلى استعداد لإصلاح الماسورة.

تهلل وجه خليل وقال: ولماذا لم تتكلم ياستاذ وأنت ترى ماترى؟ فقال: يعوزنا امكانيات وآلات، رد عليه كعادته فى كل الأمور: بسيطة فورًا تجد ماتأمر به.

صعد جميل وعائلته إلى غرفته التي تعود النزول بها، حيث يهاتف خليل قبل قدومه حتى يحجزها له، والتي تجاور بمحض الصدفة غرفة الأستاذ السباك صاحب الزوجة ذات العيون الساحرة، والقوام الملفوف والوجه المشرق اللعوب، وطفلتها ذات الخمس سنوات التي أخذت من أمها الكثير، والتي لاتجعلك تصدق وهي مع والدها الذى اشتهر بالأستاذ السباك بأنها ابنته، فشفتيه غليظتين وأنفه يميل إلى الإلتواء والضخامة، وفى جسمه ذبول وكأنه تعافى لتوه من مرض عضال، رغم سني عمره التى لاتتعدى الخامسة والثلاثين عامًا بحال، يشعرك بالسذاجة إذا مادار بينكما حديث، وذلك بكثرة كلامه في كل شيء وانصياعه لأي رأي، مما يجعلك تتعجب كيف رضيت تلك الغندورة الحسناء به زوجًا وهي التي يليق بها فارس مغوار، أو أمير في بلاط قصر ملكي، وليس غرفة فقيرة في فندق عتيق.

صعد الأستاذ السباك متهللًا إلى غرفته ليخبر الزوجة بالعمل الجديد، وإن اللـه قد فتح عليه من أوسع الأبواب، ورزقه من حيث لا يحتسب.

ما إن مرَّ جميل عبداللـه أمام باب الغرفة المفتوح ورمق بطرف عينه زوجة السباك حتى خفق قلبه؛ وكاد أن ينخلع من شدة اضطرابه حين

التقت عيناه بعينيها . وآه من عينيها، همس بها في نفسه وأكمل: ياابن الكلب! قاصدًا بابن الكلب زوجها الأستاذ السباك، حسدًا منه على هذه النعمة التى لايستحقها، وليس أهلًا لها . وقال: أيرضيك ياربي عبث البشر هذا؟ هذه المهرة الأصيلة يمطيها تافه أجرب؟!

فرحت هناء زوجة الأستاذ السباك كثيرًا بهذا الخبر، فقد كان يلزم الإقتصاد الشديد فيما تبقى لديهم من نقود بعد أن اشترى زوجها تذاكر السفر إلى دولة عربية حيث يعمل هناك . ماذا يعمل؟ يجيبك على الفور: فى أى شيء.

كان قد عاد من رحلة غربتة سنوات طوال، بما أمكنه من إمتلاك قطعة أرض زراعية، وابتناء بيتًا جميلًا على رأسها، وأهم من هذا وذاك كان قد تزوج من هناء، حلم عمره الذى ضاع بزواجها من أحد الأعيان، ولكن فترة زواجها لم تستمرطويلًا، فقط بضعة أشهر وطلقها الرجل بعد أن كثر حولها الكلام – حسبما قال – ولأنه بخيل جدًا وفظ فى معاملته – حسبما قالت –!

ولأن زواجها الثاني بدوره لم يدم طويلًا، فقط سنة واحدة وعدة أشهر ومات عنها زوجها دون أن تنجب منه، ورفض أهل الزوج المتوفى أن ترث منه شيئًا فلجأت للقضاء، ولكن مثل هذه القضايا تحتاج إلى نفس طويل، وأشاعوا أنها كانت وجه شؤم، ومات الرجل مقهورًا لعجزه أمام وحشية رغبتها وكان كبير السن فلم يحتمل قلبه المجهود الكبيرفتوقف .

وكانت قد رفضت الزواج بالأستاذ السباك قبل زواجها الأول، ولكن الطلاق يجعل المرأة وأهلها لايتمسكون بشروطهم القديمة.

***

ماإن دخل جميل عبد اللـه حجرته حتى خرج مسرعًا قاصدًا دورة المياه المشتركة بين النزلاء كدأب الفنادق الشعبية، وكان باطن الأمر محاولة رؤية زوجة السباك .

كانت تتمتع بدهاء خارق يوهمك بصدق ماتفعل، فتارة تجدها طيبة خجولة حسنة النية، وتارة غبية لاتفهم ماتقصده أنت لها، حتى تبوح بما تقصد فتحسبها عليك حجة لها وأنها غير مااتهمتها به، وأخرى تقول بعينيها مايقتل قلب مُحدثها، تُحْكم الشرَك وتتهم الضحية بسوء النية.

نزل السباك سريعًا إلى عمله الجديد لإصلاح ماسورة الفندق، وما أن مرّ جميل إلى دورة المياه وفطنت لاختلاسه النظر إليها حتى ابتسمت، ولكنها أغلقت باب الغرفة سريعًا مما زاده إشتعالًا وجعل يحادث نفسه:

تبتسم، لابد وأن هذه الإبتسامة لي أنا، صحيح أنها كانت تمشط شعر ابنتها ولكن عيناها كانتا عندي، ولكن لماذا أغلقت الباب بسرعة هكذا؟ لابد وأن أتعرف عليها مهما كان الثمن، علمتني تجارب الحياة إن الشيء الثمين ليس بالثمن الزهيد.

دخل جميل غرفته والدنيا تدور برأسه دوران الرحى، أخبرته زوجته أن الأولاد جوعى، قال: سأذهب حالًا وأحضر مايرغبون فيه.

قالها بإرتباك ملحوظ، فسألته زوجته:

- مابك ياجميل؟

- لاشيء

- لاشيء كيف؟ إن وجهك أصفر اللون كالليمونة.

عندما دخلت دورة المياه وجدتها قذرة، فاقشعر بدني وأحسست بقرف.

- ياشيخ دعها للـه.

إنصرف سريعًا، القى نظرة على بابها المغلق، وهو لايدري أيمشي على قدميه أم على رأسه!

لم يصدق جميل عينيه عندما عاد بالطعام ولمح زوجته وامرأة السباك، وقد وقفتا فى «فرندة الفندق» المطلة على الشارع بالدور الأول علوي، تتجاذبا أطراف الحديث بود ولطف، مسح عينيه علها أوهام الخيال جعل يتسأل وهو يصعد درجات السلم: هكذا وبسرعة؟ لابد وأنها قد وقعت في غرامي، وأنا الذي كنت أفكر كيف أبدأ الحديث معها فهاهي تبادر.

مسح على صدره مسحة الواثق وقال: معها الحق فالسباك هذا ليس بزوج.

مساء الخير

- أهلًا مساء الخير

تطوعت زوجته بدور الوسيط وقالت: «جميل «زوجي ..» هناء «زوجة الأستاذ الذي يصلح ماسورة الفندق.

مد يده لمصافحتها وكأنما قد سرى تيار كهربائى بجسمه، سحبت يدها واستأذنت ودخلت حجرتها سريعًا، جعل خليل يتابع جسمها البض وهى تميس في مشيتها، نبهته زوجته لما هو غارق فيه:

- مابك؟! ألم تر نساء من قبل؟ ألم تقل إن اللـه قد تاب عليك وهداك؟

- لا .. لا .. إنني .. إنني لا أقصد شيئًا

مال إليها ليسترضيها وقبَّلها في خدها، وقال: أنتِ عندي كل نساء الدنيا، أنتِ لاتعرفي مقدار حبي لك، وهذه ليس فيها شيء أجمل منك، ولكني أتعجب كيف رضيت بزوجها هذا ال.....

قاطعته: ثانية ياجميل؟ هداك اللـه ياأبا اولادي.

لاثانية، ولا ثالثة هيا إلى الطعام.

ضاق جميل ذرعًا بوجود زوجته وعياله، وأحس أنهما حاجزًا سخيفًا بينه وبين هناء، وبينما هو يفكر فى طريقة للخلاص منهم جعل يردد اسمها: هناء، حقًا اسمها هناء وهى هناء، ولكن لاغنى عن وجودهم

فلولا زوجتي ماتعرفت على هناء بهذه السهولة، ولكن تمت المعرفة وقضي الأمر، لقد أدت المهمة وعليها الآن الرحيل، أواه من هناء كانت عيناها تقول وأنا أصافحها: ضبطك متلبسًا بالنظر إلىَّ خِلسة، يالها من عيون قاتلة، وكف ناعمة الملمس كأوراق الورد البلدي، هذا الرجل الأبله يمتلك كل هذه النعمة وحده؟!

نظر إلى زوجته وهي متربعة، تلتهم الطعام بشهية لانظير لها، فجعل يقارن بينهما: هذه زوجه، أنها فيل فى شكل امرأة، أو فيل غضب اللـه عليه فمسخه امرأة ولحظي التعس زوجني إياها، والسباك الأجرب يتمدد بجوار حورية انفلتت من جنة الفردوس، وقال بمرارة وغيظ: حرااام .

ثم ضرب دون أن يدري على منضدة إلى جواره وهو يزعق: شرعًا حرام!

سقطت اللقمة من يد زوجته، وهجم الذعر على عياله، سألته: مابك ياجميل؟ من المؤكد إن عينًا أصابتك بمكروه، إقرأ الفاتحة والمعوذتين بكفيك ومررها على وجهك وجسمك، أو انتظر بعد الأكل سأرقيك الرقية الشرعية، تعلمتها من أمي حين كانت ترقى أبي إذا أصابته عين حسود.

ماأن لمح جميل عبد اللـه زوجته تصعد على السرير، حتى اطمئن قلبه لانه يعلم تمامًا مدى سرعة استجابتها للنوم، وعلى السرير المقابل صعد الأولاد تنفيذًا لأوامرها التي تعودوها . همس فى نفسه: يامفرَّج الكروب يارب، دقائق معدودات وسوف أتسلل إلى فرندة الفندق،

تنفس بعمق ومسح على صدره وبطنه كعادته، وكأنما كان سجينًا فى زنزانة انفرادية، اشتعلت الفرحة داخله عندما وجد هناء بالفرندة، تتابع زوجها وهو يقوم بإصلاح الماسورة، لم تفطن لوجوده أوربما تظاهرت بذلك، حياها فقامت برد التحية بإبتسامة مشرقة وانصرفت.

وقف حائرًا، ماذا يفعل مع هذه المرأة، أما كان يجب أن تقف قليلًا؟ كاد يندفع في إثرها ولكنه توقف، عض أنامله غيظًا، ماذا يفعل؟ انصرف إلى غرفته ولكنه وجد باب غرفتها مفتوحًا، فلم يستطع منع نفسه من الوقوف به دون أن يتكلم، البنت نائمة وهى واضعة كلتا يديها فوق رأسها على الإيشارب القصير مولية ظهرها للباب، يتدلى شعرها الكستنائي الحريري الطويل على قميص رقيق بنفسجي اللون، يجعل من استدارات جسمها اسطورة فى الجمال، جعل نظره يمسح شعرها الذى يستقر على مشارف عجيزتها المدملجة.

لايدرى أي شيطان جعله يضحك رغمًا عنه، عندما قفزت لمخيلته عجيزة زوجته وضخامتها حين تحاول الوقوف وهى مرفوعة في الهواء.

استدارت بسرعة، نظرت إليه نظرة من يسأل: ماذا تريد؟

– أنا، أنا سأدخل إلى غرفتي وسأترك الفرندة، يبدو أنني شخص غير مرغوبًا فيه.

لاأقصد ذلك مطلقًا، ولكنني لا أحب موقفًا قد يغضب منه زوجي.

يغضب زوجك؟! قالها وهو يشعر بغرابة شديدة متسائلًا فى نفسه: أوتحبه كل هذا الحب؟

- نعم وهل فى ذلك عيب؟

- معذرة لم أقصد شيئًا

- لكن قل لي ماكان يُضحكك، أتسخر مني؟

- قسمًا بربي وجد مولانا الحسين لم يخطر ببالي هذا الظن، وهل مثلك يُسخر منها؟ ليت كل نساء الدنيا مثلك، ليتهن بهذا الجمال والروعة.

مما كنت تضحك إذن؟

وجد نفسه مضطرًا لقول الحقيقة، بعد أن لعن زوجته فى نفسه، لايأتي منها إلا الهم ووجع القلب.

ولكن من يقول عن زوجته ذلك لاوفاء له، ولماذا تزوجتها مادامت لا تروق لك؟!

انصرف عنها وكأنما قد ألقت على رأسه قنبلة طار لها يافوخه، دخل غرفته وجد زوجته تغط في نوم عميق، قال زاعقًا: هذا جناه أبي عليَّ.

قعدت منزعجة وقد خفق قلبها بشدة، قالت: مابك ياجميل، ماذا حدث يارجل؟

قال بنبرة العتاب القاسي: لاشيء نامي

- مابك يارجل؟

- رأسي يكاد ينفجر

- من ماذا؟

- منكِ

- أنا، ماذا فعلت بك؟!

- لاترضيني كما ترضي النساء أزواجهن

- ماذا تريد أن أفعل؟

- لا أدري ولكن، ولكن ..... نامي لا أريد شيئًا، هذا حظي وأنا أعرفه جيدًا، سأظل معذبًا إلى يوم القيامة.

تركها وانصرف قاصدًا الشارع، صادف هناء خارجة من غرفتها، لم يستطع تحديد مشاعره تجاهها أو ماذا يقول أو يفعل! هل يهجم عليها ويطفيء فيها النار التي أشعلتها به؟

بادرته قائلة: ماذا حدث؟ سمعت صوتك عاليًا فخشيت عليك أن يكون قد حدث مكروة لاقدر اللـه.

ذهبت كل همومة في لمح البصر، وشعر بسعادة بالغة وقال: أشكرك على هذا الشعور الطيب .

ابتسمت بعذوبة ساحرة أدارت رأسه، وقالت: نحن جيران و أنت شخصية طيبة، ابنتى تحبك جدًا للحلوى اللذيذة التي اشتريتها لها ولكنها غالية الثمن.

زادت سعادته وكاد يقول: وأنا أذوب حبًا في أمها ولكنه تدارك نفسه، وقال: صحيح الحلوى مرتفعة الثمن ولكنه بالنسبة لي عادي جدًا، فالخير كثير وأكثر من الكثير، والحقيقة رأيتها وسط الناس تتابع والدها الطيب وهو يصلح ماسورة الفندق، فتعلقت بها وشعرت أنها ابنتي، وهى لطيفة ودودة لاتخشى من لاتعرفهم مثل كثير من الأطفال، وهذه صفات ابناء البيوت الكريمة، واللـه عرفت أنها ابنتك فهى تشبهك تمامًا، نفس الجمال ونفس الروعة، العيون، الشعر، الشفاه، القوام، ال.....

إبتسمت وهى تغمز بعينيها وكأنها تنبهه إن الأمر تعدى البنت إلى أمها، وقالت: وماذا بعد؟

شعر بخجل أعجزه عن الرد وقال: هل من المسموح لي أن أكرر مسألة الحلوى للصغيرة الجميلة؟ قالت بعذوبة ورقة: مسموح.

فقال وقد بلغت النشوة مبلغها به: وللجميلة الكبيرة؟ نظرت إليه بنعومة حالمة وقالت: مسموح لمرة واحدة.

***

رقص قلب جميل طربًا، عندما لمح زوجته وهناء تقفان بفرندة الفندق، وقال فى نفسه: لن أدعها تفلت هذه المرة، إن عقلي قد ضاع مني، ولايجب أن يضيع هكذا بلا ثمن، هذه الملعونة تحبني ولكنها من النوع الثقيل الكتوم، تجيد تعذيب من تحبه ليهيم بها أكثر، ولكنني صابر يامعشوقتي الغالية.

حيّا الأستاذ السباك المنهمك فى إصلاح الصرف الصحي، داعب ابنته التي هى صورة من أمها هناء، ماأن رأته حتى ارتمت في احضانه وهمست فى اذنه: أريد حلوى؟ رفعها بين ذراعيه وطوح بها فى الهواء مداعبًا، وكأن طلبها منه أمر سماوي اختُص به دون البشر، فأخذها فرحًا ليحقق طلبها .

أشارت بيدها لوالدها قائلة: سنشتري حلوى ونرجع حالًا.

إعتذر له السباك عن تصرف ابنته غير اللائق، فضحك قائلًا: يارجل الأطفال أحباب اللـه . أقسم له السباك إنها لم تألف أحدًا بهذه السرعة غيره، فضحك جميل فى سرور بالغ وقال: معنى ذلك إن اللـه سبحانه وتعالى راضٍ عني بشرك اللـه بكل خير، ثم قبَّلها مغمض العينين وهو يتوهمها هناء قائلًا فى تنهدة: ياحبيبتي.

توطدت العلاقات أكثر حتى أن جميل حرض امرأته أن تصر على أن تأكل هناء وابنتها معهم، بدعوى أنهم فقراء وذلك ثواب كبير، ولكن الحقيقة أبعد ماتكون عن ذلك، وكان يأتى بالطعام الوفير والمتنوع،

بل والغريب مرتفع الثمن، ربما كان رسول الغرام إلى قلبها، ومأأن استكثرت ثمن الطعام حتى سارع جميل إلى رفع الوسادة التي على سريره لترى ماتحتها من أموال كثيرة.

علقت هناء على ذلك بجملة واحدة: زادك اللـه من الخيرات، وصرفت نظرها سريعًا. ضحكت زوجتة جميل وقالت: وضع النقود تحت الوسادة عادة ورثها عن المرحوم والده، دون أن يحسب كم أخذ وكم بقي، فهو أكثر خلق اللـه إسرافًا، فضحك جميل بثقة وتباهي قائلًا: وعلام البخل وقد وهبني اللـه الكثير والكثير؟!

ورثت زوجة جميل الإبنة الوحيدة عن والدها أكثر من عشرين فدانًا، من الأرض الزراعية فى أطراف مركز دمنهور، ولحسن حظها دخلت جميعها فى «كردون» المباني، فتضاعف سعرها عشرات المرات، باع جميل نصفها واشترى به خمسين فدانًا زراعية لتأمين مستقبل اولاده، وتبقى له مبالغ نقدية تكفيه عدة سنوات يفعل بها مايشاء، وذلك ماجعله يستغني عن الوظائف أو الأعمال التي تشغله، فكان كل عمله تلقي غلة الأرض الزراعية، والتخطيط للإستفادة من باقي الأرض التي دخلت «كردون» المباني.

ترامى إليهم صوت ابنه هناء التي استيقظت من نومها، بغريزة الأمومة قفزت إليها، وفى إثرها كان جميل الذى طلب منها البقاء وسيذهب هو إليها، رفعت هناء ابنتها على صدرها واحتوتها بزراعيها

بدلال وهى تنظر لجميل مبتسمة، داعب الطفلة قائلًا: مابك ياقطة؟ ثم طبع قبلة على خدها، تمناها على شفاه أمها، ثم قال لهناء حديثة المكرر: قد أخذت منك روعة الجمال.

الجمال هو جمال الروح

– الحقيقة قد اكتملت فيكِ كل الوان الجمال وإبداع الخالق، أحسد زوجك على كل هذه النعم.

قالها وهو يتفحصها بعيون تتقافز منها الشهوة، أمسك بيدها بحجة محاولة حمل الطفلة عنها، ضغط عليها وعيناه تجوسان فى تضاريس وجهها.

ابتسمت وقد تركت يدها فى يده، وقالت في دلال: وماذا بعد، إن لك زوجة طيبة جدًا؟ ضحك ساخرًا: استغفري ربك.

***

إنهى الأستاذ السباك عمله فى إصلاح الصرف الصحي للفندق العتيق، صعد إلى غرفته وجدها خالية، نادى على زوجته، جاء صوتها من غرفة جميل تناديه لينضم إليهم، رحبوا به ومدحوا في عبقريته وهو يخبرهم أنه قد عالج الأخطاء القديمة فى شبكة الصرف الصحي واستبدال المواسير المتآكلة . كان النهار قد إنتصف وقد وعدهم جميل بوجبة غداء من أشهى أنواع الأسماك، قال السباك ضاحكًا فى سذاجته المعهودة في الحديث: ولكن ذلك سيكلفك الكثير ياصديقي!

– وماالمال فى سبيل الصداقة ياصاحبي؟

– معك الحق، وأنا سأغتسل جيدًا بعد هذا العناء الذي إستمر ثلاثة أيام، تطلب منا الحفر بحذر شديد تحت جدران الفندق القديمة، ولكن الحمدللـه أنجزنا المهمة بنجاح كبير.

أغلقت هناء باب غرفتها مع زوجها وهمست له: إن هذا الولد المراهق – تقصد جميل – يلعب بالنقود وكأنها أوراق عادية!

– ماذا تقصدي؟

– إن معه مئات الآلاف من الجنيهات، وحياته كلها تبذير بغير حدود أو خوف من الفقر تحت أي ظروف!

– سبحان مقسم الأرزاق ياهناء، ناوليني ملابس نظيفة؟

– ماذا سنفعل مع جميل؟

– سنأكل الأسماك فإنني هالك من الجوع

– أسماك، وهالك من الجوع، ماذا حدث لعقلك؟ أحدثك عن النقود التي بلا حساب، وأنت تقول: أسماك؟

– وهل جننتِ ياهناء، أنسرقها؟

– ليست سرقة ولد طائش يعبث بالنقود، فيجب أن نأخذها من يده كي يؤوب إليه عقله.

دع ذلك لي، وهل الشقاء الذى أنت فيه لايؤلمني؟

– أنا رجل وتلك وظيفتي فى الحياة لاعليكِ أنتِ.

ليس ذلك عدلًا يرضي اللـه، إناس تلهو وتعبث وإناس تموت من أجل لقمة العيش!

أدار الكلام فى رأسه، وكعادته يوافق على ماتقترحه عليه، وقال: لكن الطريق خطرة، وإذا إنكشف أمرنا ستكون كارثة.

دع ذلك لي فقد دبرت كل شيء، وخططت لكل الإحتمالات، وربك حليم ستار ولن يرضيه فضيحتنا من أجل هذا الطائش؟

– حقًا ولد طائش يجب أن يؤوب لرشده، ولن يرجع إلا بذلك؟

قالت فى شبه أوامر، وهو يستمع كتلميذ مطيع : بعد الغداء ستخرجا سويًا إلى مقهى الفندق بحجة تناول الشاى، بعد أن أتم كل شيء سأرسل لك البنت تطلبك في أمر عاجل، بعدها نغادر الفندق.

بينما تلعب ابنة هناء مع ابناء جميل، كان يراقب وقت دخول السباك الحمام، وبعد أن سمع صوت نزول الماء على جسده وكان قد انتوى على تقبيلها مهما كان الثمن .. وحدها وسط الحجرة تفكر فيما هى مقبلة عليه، بادلته الإبتسام حينما توقف أمام الباب المفتوح، دخل إليها، طوقها بذراعيه، حاول تقبيلها، إنفلتت منه وقالت بميوعة وإغراء: عيب.

العيب هو عذابك لي وأنا أحبك؛ بل أذوب حبًا كدت أفقد عقلي لاتكوني قاسية وظالمة؟

- لا أنكر أنني استريح لوجودك جدًا.

- رجاءً لاتكوني قاسية؟

- ستجعلني أفعل مالم أفعله فى حياتي فشوقي لك كبير؛ رغم خوفي مما سيحدث

- معنى ذلك أنكِ تبادليني الحب ياهناء؟

- كان يجب أن تعرف ذلك منذ اللحظة الأولى، ولكنك غبي يا حبيبي.

انخلع قلب جميل من أضلاعه لشده مايشعر به من السعادة؛ وكاد يجن وهى تقول له:

- فى المساء سأمنحك أكثر مماتريد.

سيكون زوجك هنا ماالعمل إذن؟

- سأرسله إلى البلدة ومعه ابنتنا ليأتينا بأشياء سأخترعها له، وهو كما ترى لايعصى لي أمرًا، هيا اذهب لشراء الأسماك حتى لايشك أحد في أمرنا.

إنصرف جميل وهو يطير بجناحي الفرحة و يحدث نفسه: «أخيرًا إعترفت وخضعت».. وأحس بقوة وعزة فى نفسه مُجددًا الثقة فى

رجولته التى تجذب إليه النساء؛ فقد استطاع فى وقت قياسي إخضاع هذا القلب القاسي، رقم قياسي فى الحب ياجميل .. قالها بنشوة كبيرة وهويتخيل فيها تفاصيل ماسيحدث.

أخذته دوامة التفكير فى العقبة الكؤود فى سبيل سعادته الليلة، زوجته والأولاد: لابد وأن أتخلص منهم، فدورهم إنتهى.

عقد العزم على أن يجدد لها مالديها من مشغولات ذهبية، بأخرى حديثة ويرسلهم إلى البلدة بعد الغداء مباشرة.

أعلن جميل ذلك العزم بحضور الجميع على مائدة الغداء، إعترضت هناء بشدة معللة ذلك بما تجده من الأنس والمسامرة معها.

حزن جميل جدًا على هذا التصرف الأحمق من هناء، وكاد يصرخ فى وجهها على إفسادها الخطة.

كان جميل أول من قام عن الطعام، بعد قليل تبعته هناء، نظر إليها بغيظ قائلًا: ماذا قلتِ يامجنونة؟!

- لو ذهبت زوجتك فمعنى ذلك أن يبتعد كل منا عن الآخر، أفهمت؟

- ولكن مالعمل؟

- أقراص منومة، قرص واحد بكوب الشاى وهى بطبيعتها نؤوم.

تهلل وجهه فرحًا، كيف غاب عنه ذلك؟ مدح ذكائها الخارق، وقال: ألا يجب أن نخدر زوجك أيضًا؟

– لن يبيت هنا صدقني يامجنون.

ستكون أحلى ليلات العمر

– وأنا أيضًا

حاول أن يقبلها ولكنها حالت بينهما قائلة: لاتتعجل؟ ماعليك إلا أن تأخذ زوجي وتنزلا لتناول الشاى، ولاتنس أن تأت لنا بأكواب منه وأقراص المنوم؟ وعندما ارسل ابنتى لتنادي والدها، تذهب من فورك إلى محطة السكة الحديد، وسأذهب بنفسي لأودعه حتى يركب القطار، ونعود سويًا، هل هناك أحلى من ذلك؟

– إنكِ أذكى من أبليس ياحبيبتي.

ضحكت وهى ترّقص حاجبيها، وترسل له قُبلة فى الهواء، وقالت: كيدهن عظيم!

***

دق جرس الهاتف بالفندق العتيق، رفع خليل السماعة، كان جميل عبدالله بالطرف الآخر

– ألم يظهر الزفت السباك أو الملعونة زوجته؟

– للأسف الشديد لم يظهرا، من أين تتكلم؟

– من الأسكندرية، فتشت جميع الفنادق الشعبية والسياحية ولكن لاأثر، وذهبت إلى عنوانه المدون عندك فى دفتر النزلاء، لكن لاجدوى: قالوا ترك البلدة منذ سنوات ولم نعد نراه .

إنفجر خليل فى الضحك بعد أن إنتهت الكالمة، وضحك معه كل من يعرف القصة، علق أحدهم ممثلًا طريقة الحكماء بطريقة ساخرة: عن جدى غفر الغفار له، عن جده قال: إحذر كيد النسوان.

كان جميل قد قدم بلاغًا بقسم شرطة الجمالية، الكائن بميدان بيت القاضي خلف المسجد الحسيني، والتابع له الفندق لإثبات السرقة، وعاد يهذي بكلمات يرفع بها وجهه للسماء: أصلى منذ أربع سنوات، وأقلعت عن مغامراتي النسائية رغم ماتعرفه عن زوجتي التى تشبه الفيل، ثم تأخذ بنت الشيطان كل النقود ولاتترك شيئًا؟ هل هذا عدل منهم؟ ولكنني السبب!

لايهمني النقود فأنت تعلم أنها كثيرة، ولكن قهرة قلبي تؤلمني، لم تطفأ ناري ولو بقبلة، آه ياابنة الشيطان!

كان جميل كلما تذكر أنه هو الذى وضع أقراص المنوم في الشاى لزوجته وأولاده يتمني لو يصفعه أحدٌ على وجهه كي يؤدبه غير هذا الأدب.

بعد عودته من قسم الشرطة وفى باحة الفندق وبعد أن علم النزلاء بالقصة جعلوا يهونون عليه ماحدث.

اخرج جميل فى شبه هستيريا «إيشارب حريمي» من جيبه وطوح به فى الهواء قائلًا: هذا أغلى إيشارب حريمي فى العالم!

هذا إيشارب امرأة السباك، وقع منها وهى تنفذ فعلتها الحقيرة، أو تركته تذكارًا لغبائي، أقسم بربي ومقام الحسين لن أتركها تفلت من يدى.

بعد عدة أيام عاد جميل إلى القاهرة، بحجة سداد النقود التى إقترضها من خليل كاتب الفندق، نزل فى غرفة زوجة السباك كما طلب من خليل الذى أدهشة ذلك، رقد على السرير الذى كانت ترقد عليه، جعل يحدث نفسه وهو يحتضن الوسادة التى كانت تستقبل أنفاسها:

آه لو كنت قبّلتها ولو مرّة واحدة، هذه المجنونة لو طلبت نور عينيّ ماتأخرت لحظة.

جعل يتذكر الحوارات التى دارت بينهما، وكيف إعترفت له أنها تحبه، عندما صارحها بحبه .وجعل يلتمس لها الأعذار:

ربما أرغمها زوجها الزفت السباك على سرقة أموالي، بالتأكيد هو لأنها لو أرادت نقودًا لصارحتني.

ضرب جبهته بكفه، قال بغضب جارف: ماذا أقول؟ ألتمس لها الأعذار؟ ملعون من يثق في امرأة، حتى لوكانت ..... كانت ماذا؟ أنا رجل حمار، لا أنا حمار فقط ولست رجلًا .

عذبتني بل جعلتني أكره زوجتي الطيبة، طيبة؟! لو كانت طيبة لكانت جميلة.

جعل الصراع يدور برأسه، كيف؟ وكيف؟ ولماذا؟ ولماذا؟

هبَّ واقفًا، نزل درج السلم، وقف فى باحة الفندق، نظر إلى النزلاء نظرة المتفحص المريبة، زعق قائلًا:

- خليل

- نعم

- أنا راحل

وخطى إلى الشارع.

ثورة المُحَنط

مسح الريس فتحي حارس متحف الصيد شواربه، وأحس بالرضا وهو يحصى حصيلة اليوم من بقشيش زوارالمتحف الرابض على شاطيء النيل ناحية المنيل .

تلك عادته فى كل يوم عندما تنتهي مدة الزيارة فى الساعة الرابعة بعد الظهر، كان يتمنى أن لايزور المتحف مصري واحد، فهم فقراء لايدفعون، ولاينال من ورائهم سوى وجع القلب والرأس، يريدون أن يعرفوا كل شيء ولايدفعون شيئًا، أما الزوار الأجانب فهم الأحباب، أصحاب الكرم والإنفاق، ولاسيما خلاصة الأحباب أصحاب الدولار الأمريكى الأخضر رمز الرخاء، بخلاف الجنيه المصرى صاحب اللون البنى الأجرب مثل القشف، هذا الجنيه الذي ركبه ستون عِفريتًا، ففقد قيمته وأصبح لايساوي هم حمله .

حمد الريس فتحي نظام الحكومة الذى سمح مؤخرًا بحرية الصرافة، ودعا بالخير لضغوط صندوق النقد الدولي التي كانت سببًا فى تحرير الصرافة فقد كان يعاني الأمرين فى تغيير العملات الأجنبية، ماعدا «الدولار «الأمريكي فهو حبيب الملايين، وتستطيع أن تشتري به أكباد الناس لا بضاعتهم فقط .

مرات عديدة يتمنى الريس فتحي أن يصدر قرارًا بمنع المصريين من زيارة المتحف ولكن الأمر ليس بيده، فقرر أن يهملهم ولايرشدهم

إلى خط سير الزيارة، بل أعد عصًا غليظة لمن لا يروقه الحال ويحاول الإحتجاج على تصرفاته، وقال فى نفسه: بحسبة بسيطة أستطيع أن أحبس من تسول له نفسه التطاول على شخصي.

فقط أكسر فترينة عرض واتهمه بكسرها ومحاولة سرقة آثار المتحف، وماأدراك ما آثار المتحف أنها تاريخ مصر، ليس ذلك فقط بل محاولة الإطاحة بي شخصيًا أنا حارس آثارها وتاريخها ورمز حضارتها.

كعادته مسح على شواربه بنشوة بالغة وهو ينظر فى مرآة الملك فاروق الأول ملك مصر السابق، والتى هى جزء من عهدته فى المتحف قائلًا فى استعلاء: ما الفارق بيني وبين فاروق الآن؟ فها أنذا أنظر فى المرآة التى كان ينظر فيها، وتحت أمري كل ما ترك من صيد إستغرق فى جمعه سنوات عمره . ثم تساءل فى نفسه: تُرى هل كان يخطر ببال جلالة الملك أنني سأكون حارسًا على مقتنياته يومًا ما؟ أو حتى هذه المقتنيات ستكون عُرضة لعيون كل من هب ودب من الخلق أجانب ومصريين؟ ما أن تخطر بباله كلمة «مصريين «حتى يتأفف قائلًا: اللـه يقطعهم فقر وعنطزة، مثل ضفادع الغيطان رأسها فى الطين وتشخر إلى السماء.

لاينس الريس فتحي يوم استلامه العهدة، يوم أقسم أن لايهمل فى صغيرة أو كبيرة، فكل قطعة من المعروضات هى قطعة منه هو شخصيًا، لاينس نصائح رئيس المتحف المشددة له: كل قطعة من هذه المعروضات ولو صغيرة لاتقدر بمال ولاثمن لها، إنها مصر تاريخ مصر يافتحي.

فى نن عينيّ وفى جوف قلبي وروحي

– لو ضاعت قطعة واحدة أو تلفت معناه أنك أهملت فى كل المتحف.

مفهوم وعمري فداء كل قطعة صغيرة أوكبيرة إنها أمانة الوطن.

تراكم التراب ممنوع، النظافة اليومية مطلوبة دائمًا.

إن شاء اللـه ستجد مايسرك ويرضى به الناس عني.

حُسن استقبال الزائرين من أولويات عملك

– كل العالم أهلي وأصحابي وأنا خادمهم.

يضم المتحف كل ما قام بصيده فاروق الأول ملك مصر والسودان، طوال سنوات عمره التي قضاها بالبلاد، هكذا تؤكد خريطة المتحف الخشبية، فقد كان الملك مغرمًا بالصيد، أي شىء وكل شيء .

معلقًا على الحوائط أكثر من مئة رأس لأنواع الغزال من مختلف مناطق المملكة المصرية آنذاك، معلقة الـرؤوس مثل صور قادة الحروب فى المتاحف الحربية، وتحتها مكتوب نوع الغزال واسم المنطقة التي تم منها الصيد ويوم الصيد.

لم يترك فاروق شيئًا، قالهاالريس فتحى لنفسه، أرانب، جاموس، طيور بأنواعها، أوز برى، نورس، عقارب، برص ابن يومين، قنفذ

وولده، دجاج بلدى، عصافير و ...و... تُرى هل كان جلالته لايعمل شيئاً سوى الصيد؟!

كل هذا معلق بعناية فائقة بعد تحنيطه، ثم وضعه بالفترينات والدواليب في دهليز طويل جدًا، يقبع فى نهايته أسد ضاري مرفوعًا رأسه فى كبرياء مُحنط، ونصف جسده داخل عرين أُعد خصيصًا له، وإن كان مشهده المتوثب يوهم من يراه بأنه حي يتنفس.

توهم الريس فتحي فى يوم من الأيام أن الأسد يتحرك، تملكه الرعب لايدري كيف خدعه بصره، راودته فكرة أنه ربما تعود إليه الحياة يومًا ما، إن المعجزات لا ساحل لبحرها والأسد بكامل هيئته، أسنانه القوية، شعره الغزير، رأسه الكبير وصدره المخيف، ومخالبه القاتلة فقط تنقصه نفخة الروح ليمارس دوره الطبيعي ويلتهم كل من يحاول الوقوف أمام جبروته، أو يمنع سيره أويكبل حريته، ربما، كل شيء فى زماننا هذا جائز!وربما حدث أكثر من هذا، قد يستنهض الأسد كل هذه الطيور والجوارح، وتجتمع كلها لقتلي، العقرب بسمه، والحشرات والثعابين، وتنقر رأسي الطيور، وقد أفقد أنا روحي وأصبح تمثالًا بعد تحنيطى فى صالة المتحف مكانهم، تمامًا مثل نزلاء السجون إذا هرب أحدهم حُكم على الحارس بالسجن.

إنزعج الريس فتحي من تلك الأوهام المجنونة التي هاجمت رأسه، فارتعب قلبه وركبه الخوف، وظل يلح على رئيس المتحف

حتى جعل سورًا حديدًا حول الأسد، وبداخل السور ألواح من الزجاج بدعوى أنه يخشى من تحلل جثمان الأسد من كثرة أنفاس الزوار، التي تنفث الرطوبة والحرارة معًا.

لم يطمئن قلبه حتى رخص له مسدسًا، وابتاع كرباجًا سودانيًا، ليقاوم رغبة الأسد المتوحشة إذا استطاع كسر الزجاج وتحطيم حديد السور.

سمع نصيحة أحبابه المقربين بأن يستبدل لباس الجلباب، وأن يرتدي البنطال والقميص فإن وضعه الآن قد تغير كثيرًا، فلم يعد فتحي الفلاح الفقير، لقد فتح اللـه عليه وأصبح يتعامل مع الأجانب ومن الكياسة أن يرتدي ما يليق بعمله.

عبر بوابة المتحف الخشبية العتيقة مبتسمًا، وهو يشير إلى بعض معاونيه فى نظافة المتحف، بعد أن أقنع المسؤلين بضرورة من يعاونه – رغم ضيق الميزانية – لكن المتحف كبير، وحفاظًا على أمن وسلامة المعروضات، فلابد من وجود أكثر من فرد.

زود الريس فتحي كل معاون له بسلاح حاد، أصدر إليهم التعليمات المشددة بالإنتباه لكل حركة قد تصدر من الأسد أو من بعض الطيور المعلقة فى الفتارين.

عندما ضحك أحد المعاونين قائلًا: ياريس إن الأسد ميت، والطيور شبعت موتًا، لم يتردد لحظة واحدة فى لطمه على وجهه، متهمًا إياه

بالغباء وعدم الصلاحية وفصله من العمل وسحب راتب الشهرمنه، ثم أمر باقي المعاونين بالقائه فى الشارع.

مع كرور الأيام ازداد عدد المعاونين، أصبح لكل فترينة حارساً خاصاً بها، انتقى مجموعة من رجال الحرس القدامى الأشداء و الذين نالوا ثقته، وكلفهم بفترينة الأسد المحنط.

أكد لهم بكل صرامة:

– رأيت الأسد يتحرك فى يوم من الأيام، وهذا هو السبب فى جعل هذا الحاجز الزجاجى حوله، والسرفى ذلك – وهذا لكم وإياكم أن يعرفه أحد – هو محاولة لتفريغ فترينة الأسد من الهواء، والسر فى هذا السر أنه لو عادت إلى الأسد الحياة لايجد الهواء ليتنفس، فيعجز عن الحركة ويمكن السيطرة عليه، والسر فى عين هذه الأسرار، هو إنشاء هذا السور الحديدى لمنع حركة الأسد إذا نفذ من الزجاج، وهذا يمنحنا فرصة للمقاومة أو الهرب إذا احتاج الأمر، وفقكم الله.

استخلص الريس فتحى ثلاثة من مساعديه وقربهم منه، وبعد أن أجزل لهم العطاء، أسر إليهم أن يراقبوا حركة باقى المساعدين واسلوب تعاملهم مع مع الفترينات، وهل يوجد بينهم من يمكن أن يسمح مستقبلاً – إذا افترضنا عودة الحياة لهذه الكائنات – أن يتركوهم دون مقاومة أو ينضم إلى صفوفهم ضدنا؟

وكعادته بعد كل مهمة جديدة يسندها لأحد، يلقى خطبة تحذيرية تهديدية:

– لا تنسوا أننى بفردى يمكننى حراسة هذا المتحف ن ولكننى رأيت أن أحل عقدة البطالة التى تعانون منها، ويجب أن تعلموا جيداً أن هذا سرى للغاية، لايجب أن يعلمه أحد غيركم على الإطلاق، ولو كان جنياً من الأرض . معنى ذلك أنه لو تطرق لفظ مما أقول إلى الصحف المأفونة فسيكون العقاب للجميع، وستخربون بيوتكم بأيديكم، وتلك المسألة أعددت قانون عقوبتها، ولكن قد أرى ماهو أشد من العقوبة، ليس تهديداً ولكنه تحذير وتنبيه للغافلين، ولمن لايقدرون مقدار ما أعانيه لكى أوفر لكم رواتبكم، واستمراركم فى العمل.

معنى ذلك أنكم بغيرى لن تجدوا لقمة العيش، فسلامتى هى سلامتكم جميعاً، وإرضائى هو مزيد من السعادة لكم، معنى ذلك أيضاً، أنكم بى تعيشون وترزقون وأولادكم، فأنتم لحظة غضب عابرة، فاحذروا تلك اللحظة، وليحذر أحدكم أن يضبط وهو يفكر فى غير سلامتى، والإستعداد للفناء من أجلى كى يضمن لعياله حياة طيبة، هذا إذا إضطرته الظروف الأمنية أن يموت من أجلى، انتهى الإجتماع انصرفوا إلى أعمالكم، وفقكم الله.

***

لن اسمح لأحد أن يغفل لحظة عن مراقبة مايخصه، لايتهاون أحد فى التدقيق جيداً، مرة من بعيد وأخرى من قريب، يدير ظهره

للفترينة ثم يلتفت فجأة شاهراً سلاحه، ربما غافله عصفور متمرد وحاول الإنقضاض عليه، لايغرنكم أنها عصافير وديعة فى مظهرها، فأجداد هذه الطيور أبادت جيش «إبرهة» المسلح بالفرسان والأفيال والعتاد، هل تعلمون من هو «إبرهة «؟ سأحدثكم عنه فى اجتماع لاحق، أرجو أن يذّكِرنى مسئول تدوين الاجتماعات خوف النسيان، فأعمالى كثيرة كما تعرفون.

***

قررنا صرف مكافأة طيبة لحارس الجاموس المصرى، رجل مخلص، لم ينس كرمى له، فوضع صورتى بجوار الفترينة حتى لا أغرب لحظة عن عينيه.

لابل عن قلبى ياريس، قد اشتعل القلب بحبك حتى أدمنتك يامولى نعمتنا.

كم أعشق تلك الأوصاف الرنانة، عظيم جداً أنى راضٍ عنك، هيا إلى أعمالكم، لاداعى لضياع الوقت انصرفوا.

***

ماهذا ياأوغاد؟!

صورتى بجوار كل الفتارين، ماذا سيقول الزوار؟ قطعاً سيلعنون هذا الذوق المتعفن، صورة واحدة تكرر مئات المرات، هل هذا معقول، شىء يدعو للسأم وللقرف.

إن كان ولابد فصورة وأنا ابتسم، وأخرى وكفى فوق زناد سلاحى، وثالثة وأنا أفكر، وأخرى وأنا ..... هكذا، يحب التنويع، انصرفوا فوراً قبل غضبى عليكم ياحمقى .

***

- أنتم خلصائى، تعلمون ذلك جيداً، وإلا مااخترتكم لتكونوا عيونى المفتوحة على كل الحراس، ولذا ارجو تقاريراً صادقة لما يحدث فى هذا المتحف، لايهمل أحد لمحة، حركة، إشارة من عين حارس لعين حارس آخر، قد تكون إشارة بدء لكارثة لا نعلمها، كل شهيق كل زفير أرجو أن أعلم مصدره، مفهوم؟هذا لسلامتنا جميعاً، وسلامة متحفنا المحبوب.

هذا تقريرى ياريس، سرى وخطير. تذكر أن فخامتكم قد كرمتم حارس الجاموس المصرى، لأنه وضع صورتكم بجوار المعروضات؟

- نعم، رجل مخلص يتفانى فى حبى.

هذا ظاهر أمره

- وهل فى الباطن شىء آخر؟!

- غافلته خلسة، فوجدته يعرضصرتكم أمام عيون الجاموس يحرك قرنه، وتلك إشارة أفهمها جداً، إذ إن الأمر خطيرن فالحارس يدبر لقتلك ياريس، والقاتل ليس الحار طبعاً بل قرن الجاموس.

شكراً سأدبر هذا الأمر، هل من تقارير أخرى؟ انصرفوا الين ولينتظر هذا تقرير القتل.

***

نحن الحكام، كم نحن مظلومين، لانهنأ فى لي أو فى نهار، لانهنأ فى نومتنا مثل بسيط ساذج يتمدد، يتمرغ فوق سريره مسروراً، يضاجع زوجه كل مساء.

لو يدرى العامة كيف الحاكم يقضى ليله، فوق أكف الأرق وجمر القلق وهم كالأجولة المنتفخة لا يألون لأمن الدولة هماً . ومع هذا لانأمن خدعهم القذرة، أقسم أنى لم أهنأ فى نومى مذ آلت لى عهدة هذا المتحف، قلبى دوماًيخبرنى بأن مكيدة كائد تدبر لى، ، فأفتش تحت سريرى عل القاتل يكمن لى تحته، أو دس خلسة قنبلة موقوتة، بل أنى أفتش تحت وسادتى عل المجرم قد وضع شيئاً يتفجر فى رأسى، وأفتش تحت المقعد، تحت المنضدة، بل تحت بساط الأرضية، من يضمن؟ أنه عمرى وأمن المتحف، لا أنسى يوماً أفزعنى فى نومى قطة، فأمرت بأن تقتل القطط المأفونة، لكننى أيضاً أفزع.

هل يشعر هذا القذر بعذاباتى تلك؟ ويريد ليقتلنى هذا المنكر للنعمة، هل يعلم مايشقينى من أجله، من أجل عياله، هل يدرك أننى لاأهنا مثله فى نومه أو فى مشيه يتسكع فى الشارع فى لذة لايمكن أن تتوفر لنا نحن الحكام؟!

أو لذة أن يتزاحم فى سيارة عامة يتلاحم مؤتنساً وسط الناس؟ يلامس أنفاسهم ويخالطهم انفاسه، وفلى ليله يرقد إلى جوارامرأة كالبقرة مثله، لاتعرف سوى انجاب الأولاد، وعلىَّ أنا تدبير شئونهم، طعام، تعليم، ووظائف ومشافى، وبعد كل هذا تدبرون لقتلى، سأصدر قراراً بتحديد النسل رغماً عنكم ياأوغاد، سأحرمكم تلك اللذة.

وقتي دومًا محسوبًا باللحظة، الساعة الثامنة موعد وفد المشتركين، الثامنة وخمس دقائق وفد الزوار، الثامنة وعشر دقائق جلسات الخلصاء، الثامنة ونصف الساعة اللجنة العليا، التاسعة زيارة فترينة جددها المسئول، زيارة، افتتاح، توقيع، معاهدة، احتفال، تفاصيل مملة.

هذا الزائر أصغر شأنًا، عليك حين جلوسك معه وضع ساقًا فوق الأخرى، بوسعك أن تتخفف من بعض ملابسك الرسمية، هذا الزائر أكبر شأنًا، عليك بكامل ملابسك الرسمية، ولاتضع ساقًا فوق الأخرى حتى لو فعلها هو، هذا تبتسم له ماأمكنك وتبجله كثيرًا، هذا إن شئت تبسم .

آه رأسي ستتفجر، من يحمل عني أعبائي، ويريد ليقتلني هذا الدنس الوغد، سأذيقه صنوف عذاب لايعلمه بشر، وأشرد أولاده، ولكن مهلًا يافتحي، قد يكون الرجل مظلومًا أني لم أقرأ في عينيه غدرًا أبدًا، وأنا أعلم جدًا لغة عيون البشر، ربما مكيدة ممن أخبرني، ومن الجائز أن يكون بينهما خلاف أو طمع فى زوجه بعد الخلاص منه، رأسي تنفجر، لا أدري من فيهم الخيَّر والشرير، ولماذا أعكر صفوي؟ الأفضل

والأمثل الخلاص منهما معًا فالخلق كثير، سأدبر للواشي حيلة ماكرة يقتل بها الآخر حبًا فيَّ، ثم أقيم المحكمة العادلة ضد الملعون القاتل، ويصدر حكمي بإعدامه، ذاك هو العدل . ثم أتفرغ بعض الوقت لصياغة دستورجديد صارم لحكم المتحف، سأعين حراسًا فى ثياب مدنية كالزوار حتى لايعرفهم أحد، وأكلفهم بالدقة فى جمع الأخبار، ويكونوا نواة اللجنة الوطنية السرية للمتحف، وأستخلص منهم أفرادًا ليكونوا هيئة لقياس نبض الحراس، وجمع كلامهموبماذا يذكروني فى حلقات تجمعهم، وماذا يقولون لنسائهم وأولادهم عني، وأصدر قانون النبض العام، تنبثق منه اللجنة العليا للنبض ثم اللجنة التنفيذية، وأنا سأقوم بدور اللجنة التشريعية، فلا يوجد فيهم من يصلح لتلك المهمة الخطيرة.

***

دخل الريس فتحي المتحف مزعورًا، حين ترامى إلى سمعه أصوات زاعقة وحالة هياج بين الحراس، أحس بشيء ما مريب، حاسته لا تكذب أبداً، إرتعب قلبه؛ لابد وأنه إنقلاب ضدي فعلها الخونة، فى لمح البصر أشهر سلاحه الناري تجاههم، جعل يتراجع بحذر إلى الخلف حتى يحتمي بالحائط، ما أن لمحه أحد الحراس حتى هلل: لقد انتصرنا ياريس، لقد انتصرنا ياريس . هللت جميع الأصوات: لقد انتصرنا ياريس، بالروح والدم نفديك ياريس فتحي.

تدفق الدم إلى وجهه حتى تورد، اتسع فمه عن ابتسامة عريضة بحجم المتحف، ماذا حدث، وماهذا الهرج والمرج؟!

تقدم إليه كبير الحراس: لقد انتصرنا بفضل حبكم ياريس.

مالنصر أخبرني، وقبله من العدو أولًا؟

– لقد اهتز ذيل عصفور ماكر، راقبنا تحركه من كل جهاته، رفع جناحيه ورفرف، صورنا كل تحركاته من خلال كاميرات متحفنا السرية، همس في أذن العصافير داخل فترينته، سجلنا كل كلام العصفور إليهم، حرضهم على كسر زجاج الفترينة، قال أنها سجن لايليق بنا فالسماء وطننا وليس سجن الفترينات، وزع منشوراته عليهم فاعتقلناه متلبسًا بالتمرد والثورة، ومن معه من العصافيرالبلهاء الخونة، استخدمنا خراطيم الماء ثم قنابل الغاز وأخيرًا الرصاص المطاطي ثم الرصاص الحي، وذلك حسب القانون حتى لا تزعجنا منظمات الحقوق الدولية، سيطرنا على الموقف وجاري التحقيق الآن لمعرفة باقي التشكيل الملعون . أعلنا حالة طوارىء قصوى، على جميع فتارين المتحف، وفرضنا باسمكم ياريس حظر التجوال، فعاد الأمن وفشلت كل محاولات الإرهاب وسقط الإرهابيون، هذا رغم محاولة العصفور رأس المصيبة أن يهرب، ولكننا رجالك.

عظيم عظيم، سجل كل الأسماء التي اشتركت فى اخماد ثورة العصافيرالقذرة، حتى أكافئهم.

فلتجعله عيدًا للمتحف ياريس.

وهذا أيضًا عظيم، لقد قرأت أفكاري ياهذا، فليكن «عيد العصفور الهارب» عيدًا قوميًا للمتحف، وعليه سأزيد رواتبكم.

كثرت أعيادك ياريس.

شكرًا شكرًا، هيا علقوا الزينات، إعزفوا موسيقى النصر، واعلنوا بهجة عيد العصفور الهارب، وأَعِدوا نشيدًا يليق بالمناسبة العظيمة.

أعددنا من أول لحظة، فشاعر متحفنا قد أتحفنا بنشيد قومي رائع يقول:

يامحني ديل العصفوره

بلدنا هي المنصوره

– غبي جاهل، اقطع رأسه، يجب أن يقول نشيد المتحف:

يامحني ديل العصفور

متحفنا هو المنصور

ورئيسنا فتحي مسرور.

***

استدعى الريس فتحي كبير الحراس، فى مكتبه الضخم الذى أنشأه فى صدر المتحف

– هل تمت كل مظاهر العيد القومي للمتحف

– على أكمل وجه ياريس

– عظيم، لكن يبقى شيء أعظم، أرجو وبكل الدقة أن تعرف كل كبيرة وصغيرة، عمن كان السبب الأول وراء هز العصفورلذيله، فتلك داهية

دهواء ولابد وأن أعرف من أشعلها، حتى لو إقتضي الأمر حبس جميع الحراس أو قلتهم، فالمتحف أغلى منا جميعًا وأرواحنا فداء لسلامته.

سيدنا الريس فتحي

- ماعندك ياكبير الحراس؟

- جمعنا كل الأخبار، وجدنا بعد تحري حارس فترينة العصافير لايكتم أسرار العمل عن أهله ومعارفه وأقاربه وخلانه، بل يفخر بينهم أنه حارسهم ولايجرؤ عصفور أن يهمس فى حضرته أو يرفع ريشة من ذيله، بل ويزيد بأنك ياسيدنا الريس فتحي راض عنه، وإن ابنك المحفوظ برعاية ربي شريك في المتحف لكن بوجه سري؛ فقبضت عليه وبعد التعذيب المبرح إعترف الخائن أنه اخترع تلك اللعبة، لعبة هز العصفور لذيله، حتى يعلم سيدنا الريس فتحي كيف يسيطر حراسه على كل الفترينات، وبخاصة فترينة العصافير.

إحساس طيب، لكن ليس له عندي إلا القتل، فمن يضمن لي سلامة أحداث أخرى بتلك الصورة، نَفِذ ياكبير الحراس.

أمرك ياسيدنا الأعلى الريس فتحي

- بمناسبة التعذيب عَدد ماعندك من طُرِقه في سجن المتحف، حتى يعترف المجرم؟

– ياسيدنا الأعلى، تقليع أظافر، إطفاء سجائر فى جسد المتهم، تعليق من قدميه حتى يتدلى رأسه كالعجل المذبوح، وبعد الصفع والركل والجلد، تثقيب جسده حتى يصبح كالجبن الهش، ويلقى تحت ألواح الثلج أيام البرد القارس، الصعق الكهربائى، الإعتداءالجنسي على الزوجة والأم والأخت العذراء أمامه حتى يبلغ ذله أقساه، وكثير من فنون التعذيب الأخرى ياسيدنا.

عظيم جدًا رائع، لقد واكبنا العصرالمتقدم إذن في هذا الجانب، لكن أرجو مزيدًا من هذا الفن المتحضر فى مواجهة التخريبين، وماعندك من أجهزة تنصت ومراقبة وتسجيل؟

– هذا الجانب ياسيدنا الريس فتحي كثير متنوع، لدينا أجهزة تسجل نبض القلب؛ ومعرفة هل هذا النبض ضد الأمن أم معه، وأجهزة لمراقبة سريان الدم بجسد من تحت مراقبتنا، وما سينتوي فعله، حتى لو بعد سنين، وتركيب خلايا جسمه هل هي من مواد قابلة لخيانة متحفنا أم لا؟

– عظيم جدًا، أنني راض عنك.

رضاك أكبر من أحلامي ياسيدنا الأعلى الريس فتحي، فما نحن إلا رهن إشارة من إصبعك الميمون.

ها، ها، ها، ماأنتم إلا مسمارًا في كعب حذائي.

هذا أيضًا رائع ياسيدنا الأعلى، مسمار فى كعب حذاء الريس فتحي، رائع أن نبقى بهذا الود الكامل ونظل نلازم سيدنا الأعلى طول الوقت.

أبلغ رجال الأمن بأني سأقوم بزيارة مفاجئة لتفقد فترينات المتحف فى الأسبوع القادم.

خيرًا تفعل ياسيدنا، وستجد الأمن عظيم، سنحصي ذرات تراب المتحف، ونسجل كل تحرك، أَعلم كل العلم أن حياتك ياسيدنا الأعلى هى رمز رخاء المتحف، رمز حياة المتحف، هى كل المتحف، المعروضات، الحراس، الزوار، بلاط الأرضية، لمبات النور، كل الأشياء، كل الأشياء.

شكرًا، إنصرف الآن.

***

أمام باب المتحف بالضبط توقفت سيارة الريس، فارهة سوداء اللون، منتصبًا على مقدمتها عَلم المتحف بألوانه التراثية الزاهية. بسرعة البرق فتح كبير الحراس باب السيارة، داس حذاء الريس فتحي السجاد الأحمر المفروش خصيصًا لزيارته المفاجئة.

بعيدًا عن الأعين توجه أحد الحراس إلى قائد السيارة وأعطاه طلبًا يتمنى أن يتوسط له السائق عند الريس، أومأ السائق مبتسمًا.

أشار كبير الحراس إلى موسيقى الإستقبال، عزفت اللحن القومي للمتحف:

يامحني ديل العصفور

متحفنا هو المنصور

ورئيسنا فتحي مسرور

تفقد أول فترينة، التقط مصور المتحف الخاص صورًا تذكارية، تحدث مع الحارس:

- كيف حالك؟

- بفضل رعايتكم نحن بخير ياريس

- هل عند أولاد؟

- خمسة ياريس، أربع بنات وولد واحد .

كم يبلغ راتبك الشهري؟

- ستون جنيهًا

- هل تكفيك وأسرتك؟

- نشكر أفضالك ياريس

- عظيم، عظيم

جعل يدور على فتارين العرض، وإلى جواره كبير الحراس، توقف أمام فترينة الثعابين المحنطة، نظرإليها طويلًا، همس لكبير الحراس:

- أرجو تشديد حراستكم على هذه الثعابين، إياكم أن تتحرك يومًا مثل العصفور الهارب؛ هذي أخطر بكثير، تعمل بدهاء تتخفى فى أوكار مشبوهة تلدغ خلسة، لدغتها موت محتوم مفهوم؟

- أحلام سيادتكم أمر ياسيدنا، ولكني أتعجب كيف علمتم؟

- علمت بماذا تكلم؟ - قالها مرتبكًا.

عيد آخرحققه رجال الأمن، وتلك المرة تحت مراقبتي وإشرافي، لاحظنا تحرك ذيل الثعبان الأفعى، فى باديء أمره كان تحركه ببطء، دخلنا الأوكار المسمومة، إعتقلنا من فيها، وما فيها من أموال وعتاد، طهرناها تطهيرًا، أنه عيد الثعبان المتحرك.

أخمدت الثورة تمامًا، وعلمتم جهات التحريض وجهات التمويل؟

- نعم ياسيدنا، بفضل رعايتكم وتعهدكم لنا بالنصيحة تلو الأخرى، أنه عيد الثعبان المتحرك ياسيدنا.

أحسنتم صُنعًا، لكن هذا لايكفي، هذا شيء يدعو للقلق.

عيون الحرس المتيقظ لاتغفل أبدًا

- لايكفي كلامك، قدَّم كشفًا بأنواع الأسلحة لديك، لابد من استيراد أحدث أنواع الأسلحة المتقدمة، وأساليب الإستخدام الأمثل، العالم يستعد الآن لحرب الكواكب والنجوم، لابد وأن نتطور ياهذا، وإياكم أن يعلم أحد بتحرك ذيل الثعبان، سواء كان إذاعة أو تليفزيون أو الصحف والمجلات، معنى نشر الخبر أن يتجرأ علينا الأعداء ونهون فى عيونهم.

حكمة بالغة ياسيدنا المُلهم.

أيضًا أكتب طلب استدعاء عاجل لخبراء التحنيط، لابد وأن نعيد تحنيط المعروضات، ، حتى أضمن سيطرة الحراس عليهم، وبالذات هذا الأسد المتوثب، أرجو إعادة تحنيطه شهريًا.

***

انتهت الزيارة، التقط كبير الحراس أنفاسه، أخذ شهيقًا ملأ رئتيه، لعن الريس فتحي في سره، ضحك طويلًا حين أحس بخبرته الفذة رعب الريس وهو يمر على فترينة عرض الأسد الميت، تذكر كلمات الرعب التحذيرية:

- حراسة هذا الأسد الضاري لاتوكل لحراس ضعفاء، كم أتمنى أن أدفن هذا الأسد المرعب، عيناه المنطفئة لو لمعت معناه عودة الروح إليه؛ ومعنى عودتها هلاك المتحف وتهدم جدرانه ونظامه، راقبوا كل كبيرة وصغيرة، سجلوا كل مكالمة تليفونية، تنصتوا من بعد ومن قرب ومن كل المسافات الممكنة وغير الممكنة.

هذا فى الخطة وقيد التنفيذ ياسيدناالأعظم.

***

دفع كبير الحراس باب الريس فتحي جزعًا مرتعبًا، خبر أسود ياريس! بينما خبراء التحنيط يمارسون عملهم نعق البوم الأسود، طارت أفراخ منه صعدت فوق سماء المتحف، جعلت تنعق، تنعق،

تنعق . حاولنا السيطرة عليها، لم نتمكن، استعملنا الأسلحة النارية والكيماوية والنووية لم نفلح في إرجاع البوم الناعق للفترينات.

وباقى المعروضات والأسد الميت؟

- كلٌ فى حالة، ميت

- تمالك أعصابك ياكبير الحراس، أرجو ضبط النفس، أقدح زناد الفكر الصائب كي نجد الحل الأمثل.

- هل نجعل هذا الحدث عيد البوم الناعق؟

- أيا مجنون نحن فى كارثة وتقول عيد البوم الناعق؟!

أصدر الريس فتحي أوامره بإعتقال كبير الحراس، وإيداعه سجن المتحف حتى ينقضي الأمر ويلف بنفسه حبل المشنقة على عنقه.

ذهب إلى خبراء التحنيط قالوا:

- لاداعي للإزعاج، هذا ال من البوم الزاعق صنف مأمون لايملك إلا الأصوات الحنجورية من أجل منافع شخصية يغلفها فى ثوب الوطنية.

أعرف ذلك وكنت أمنحهم سرًا من خيراتي، لكن ماالسبب فى إرجاع الروح إليهم؟

- زاد التحنيط عليهم فنعق وطار.

مايهمني هو هذا الأسد المتوثب

– لاتقلق ياسيدنا الأمر بأيدينا نحن خبراء التحنيط لا داع للخوف إهنأ بالًا.

***

فتح خبراء التحنيط فترينة الأسد مرة ثالثة ورابعة وخامسة ليضعوا مزيدًا من مواد التحنيط عليه، إرتفعت درجة سخونته، وضعوا أكثر، لمعت عيناه وفارت رأسه كماء يغلي فى قِدر، فتح فاه بإتساع الكون، زأر بقوة، انتفض، داس الخبراء بقدميه.

هرب الريس فتحي سريعًا، الحرس يقاتل يضرب، الأسد الغاضب يزأر، يتعاظم، يخطو فوق بقايا الحرس، الريس فتحي يعدو بجنون يلهث، صوت الأسد يزلزل قدميه، تمتليء الدنيا بصوته، فتحي يعدو، يقترب من السفارة الإنجليزية، السور العالي يمنعه من اللجوء إليها، تصطدم عينيه بمتاريس السفارة الأمريكية، من بابها المفتوح يدخل، يغلقه بإحكام خلفه، الأسد يتعاظم، يتضخم، يخطو كالمارد فى شاع كورنيش النيل، تتعاظم خطوته، يضع قدمًا فوق حديقة الحيوان، يهدم شباك تذاكر الدخول، سور الحديقة، الأقفاص الحديدية، تتبعه الحيوانات تمتليء الدنيا صياحًا.

تأتي أصوات من كل مكان، أصوات غاضبة ساخطة، يتجه الأسد إلى السفارة الأمريكية، فتحي يبحث عن مخلوق فيها ينقذه، لايجد سوى الصمت، صعد على سطح المبنى، جحظت عيناه ذهولًا، الأسد الضاري يخطو نحوه، قفز سريعًا من فوق المبنى، ألقى بنفسه فى ماء النيل، زعق بأعلى صوته النجدة ياحراس.

إرتعبت زوجته، إنتفضت قاعدة مابك يافتحي؟

نهض من رقدته، تمتم: استغفر ربي، كابوس مؤلم، لكني لن أترك أوغاد المتحف لو وجدته في مكانه!

حدث فى القطار

القطار المتجه إلى الأسكندرية يعلن صفارة الإقلاع، رجلٌ يبدو فى هيئته وقار يصعد، ينظر فى العربة، يمصص شفتيه، تعجب من قلة ركاب اليوم .

– لو سمحت سيدتي هل يجلس بجوارِكِ أحد؟

– المقعد خال تفضل.

هل حصلت سيدتي على تذكرة؟

– نعم، ولماذا تسأل؟

– لكني لم أحصل، لا أدري سببًا يقنعني بأن آتي بتذكرة من شباك الحجز أشعر بدوار فأفضل دفع غرامة.

يبدو خلف الكلمات أسباب نفسية قد ينفعك الطب .

– اعلمها تمام العلم، هذي طعنات في ذاكرتي من صدر شبابي، اعتقلتني الشرطة أيام الجامعة وطلابًا غيري، وخرجت أرى الناس وحوشًا أفزع من رؤيتهم .. وفي أحيان أرهم صورًا مهزوزة فقد كنت أرى الرجل اثنين بل وثلاث، أحدهم قاتل والثاني مقتولًا والثالث شاهد، وكنت أقيم المحكمة الكبري:

– لِمَ قمت بقتله ياسفاح؟

– مظلوم ياسيدنا القاضي، بل هو قاتل أولادي سرق نقودي وأنا بالسوق أجلب للأولاد الجوع بعض القوت.

– يرد المقتول: لاياقاضي الجلسة، أعترف بأني سرقت نقوده، لكن حين رأيته يتسلل خلف الأسوار ليدخل خلسة ماخورًا للفحشاء، قلت لنفسي هذا حلال سرقته، خير من أن يعصى ربه، وبهذا المال أدور على المرضى والمحتاجين، وكان إلهي فى عون العبد مادام العبدُ يعين المحتاجين

– وأقول: صمتًا ياقاتل، صمتًا يامقتول، ليتكلم شاهد هذا الحال، لكن بعد القسم الدستوري.

– أقول ياسيدنا القاضي بحق ماسمعته أذني ورأته العين: كان القاتل يتسكع بالسوق، يقضي بعض الحاجيات، وكذا كان المقتول – فقد كانا صديقين – ماحك جسم امرأة داعرة معروفة . ملحوظة ياسيدنا القاضي، القاتل شاب لم يتزوج وكذا المقتول . قال الأول للثاني: مايرضاه العقل وشرع الرب أن نقتصد المصروفات ونعد بيوتًا للزوجية، خير من أجساد مأفونة وطعام يأكله الرائح والغادي، فذا يجلب فقرًا، مرضًا، ضيقًا في الرزق، ومسخًا للإنسان.

قال الثاني للأول:

معقول ذلك جدًا، لكن لنؤجل هذا العمل اليوم، هذي داعرة أعترف بذلك لكن من أجمل مارأت العين.

قال الأول:

لن ترجع؛ أعرف مافي داخل رأسك من وسخ رابض.

قال الثانى:

أتقذفني بالكلمات القذرة ياأحمق؟

هجم الثاني فوق الأول كالأسد الضاري أرداه قتيلًا.

شعرت تلك السيدة برعب يتملكها، قالت:

- رجاءً اسمح لي، أخرجني من هذا المقعد أرجوك.

لا، لا، لاتنزعجي سيدتي شفيت تمامًا، هذي تذكارات بل أني رجل مرموق «مديرًا عام «.

أمتأكد أنت؟!

- مايجعلني أقص عليك تلك القصة، هو أني رأيت بعينيك حزنًا لا أدري سره، رغم أنكِ فى زهرة عمرك، فعلام الحزن البادي في وجهك؟

- عجباً كيف عرفت؟!

- لاتنزعجي، اعتبريني صديقًا لك.

يبدو أنك رجل طيب - وانحدرت فى عينيها دمعه.

رجاء لاداعي للدمعات، فإن بكاء الحسناوات يزلزل أركان فؤادي، مالقصة سيدتي؟ إن شاء الله يكون الفرج قريبًا.

لاشيء.

ألم نتعاهد بأنا صديقان؟

– زوجي رجل وحشي، يعشق غيري بعد سنين سبع أخدمه بنور العين، ساهرة حتى الفجر دون عَشَاء حتى يجيء.

مجنون هذا؟ يترك هذا الوجه المشرق، وذا الجسم الأسطوري كملكات الإغريق .

– والأخرى والله كقرد أجرب؛ لكن – سبحانك ربي – لحست عقله.

– هذا دون مراء لايفهم، لايجب لمثلك أن تحيا معه.

تركت له البيت، سأذهب إلى بيت والد ي، وسأطلب منه طلاقًا.

مليون رجل يتمناكِ بل رهن إشارتك، هذا ثور لايفهم، من يترك هاتين العينين الكحلاوين، وذا الشعر المرسل كخيوط حرير، بل ذا الصدر الريان كفالوذج، من يتوسده وهذا الخصر كأنه يرقد فى فردوس الجنة.

قالت مستنكرة فى دهشة واستغراب:

أستاذ لقد جاوزت حدود الأدب!

– هذا بعض من حقك ياسيدتي، إلى متى ستكوني ضحية جهل الجهلاء وعميان القلب، من يتعطل عندهم الإحساس بروعة هذا الحسن، مابالك بالفخذ اللفاء، وتلك الساق البيضاء، يحملها الإنسان على كتفيه كعلم بلاده، رمزًا للتحرير وللقوة.

قالت فى ضيق:

- أرجوك دعني أنصرف الآن؟!

- لا، لا، لن أتكلم فى ذلك بعد، لكني أقصد أنكِ من أروع مارأت العين.

ليس بهذا الأسلوب القح، قد يسمعنا الناس.

هذا صحيح لم ألق بالًا للركاب، هذا يعني أنكِ تخشين سماع الناس لاكلماتي؟

قالت فى غضب:

ها قد عدت لقبحك، أرجوك دعني أنصرف الآن؟

- سألتزم الصمت، لكني أود أن أخبرك بشيء ما.

بالأدب رجاءً وخفيض الصوت؟

- مأساتك سيدتي صورة مأساتي.

ماذا تعني؟

- تزوجت امرأة اشفاقًا مني - والله - عليها، كان الفقريحطمها بل لاتحمل ذرة حسن، فى خَلق أو خُلق، لكن قلبي الطيب أوقعني. لاحظت تزينها غير المعتاد، راقبت تصرفها، كانت تعشق شابًا غرًا مازال، ابن الجيران، ورغم دعارتها كنت كريمًا معها، وانفصلت عنها بهدوء.

إنك رجل طيب، غيرك كان سيقتلها ومعها حبيب القلب.

انظرى سيدتى كم فى جعبة أقدارى، وقد كنت – قسماً بالله – على عدم أنوثتها أغض البصر عن أى امرأة أخرى، مع أنى رجل يصلح لنساء أربع، لا لامرأة عجفاء.

ابتسمت قائلة:

– وتعرف كيف مداعبة النسوة دون حياء.

تلك صراحتي الرعناء، لا أعرف كيف أنمق كلماتي، اطلقها دون تملق، تؤذيني أحيانًا، لكن هذا طبعي السيىء، صريح دوماً.

سكت قليلاً ثم تكلم:

– انظرى ياسيدتى كيف القدر أراد لمطعونين الجمع؟!

– ماذا تقصد؟

– أن يشرُف بيتى بوجودك، تلتمسى نعيم العيش، فإن راقت لك، بعد طلاقك تلك الخلوة نتزوج.

أجننت؟ هاأنت تعود لقبحك!

– دوماً تؤذيني صراحة الفاظي، متهمًا دومًا بالصدق الفاضح، أرجو سيدة فاضلة مثلك أتعلم منها كيف تكون الكلمات.

«أعجبها الإطراء فابتسمت»

واصل كلماته: ووالله قد جرت الفرحة فى داخلى المتعب حين رأيتك، وهانحن مجروحين يضمد كا منا جرح الآخر وننسى الدنيا ساعات . فقد خانونا وهانحن نسترجع بعض الحق المسلوب.

لكن ال.....

- لاشىء رجاءً؟

- لاداعى أن يجبرنا قيد التفكير بكل الأشياء؟

- انك ليت بسهل، انك تُفقد من يجلس معك التفكير، الشخصية.

لا، ابداً لكن النفس البشرية تهفو للوحدة.

لا أفهم؟

- حواء خلقت من ضلع لآدم، فحنين المرأة للرجل حنين الشىء لوطنه، هذا حنين البعض إلى الكل، وحنين الرجل إلى المرأة هذا حنين الكل إلى البعض، وآه لو عاد الضلع إلى أضلاعه، تغدو الدنيا كالوردة فى مظهرها ومخبرها.

قالت ضاحكة:

- هذى فلسفة كبرى!

- لا بل بعض قراءة فى كتب الصوفية أعجبنى منطقها، واصدقك القول: ارتاح القلب إليكِ وشعرت بأن الضلع الغائب عنى عاد.

«إبتسمت، جرت النشوة فى عينيها، تحسس يدها، نظرت فى عينيه مستسلمة تتدفق منها الرغبة، همس بأذنيها: كم يعشك القلب، أشعر أنى أحبك منذ ألاف الأعوام، ابتسمت لخِدر الكلمات، مالت نحوه، اسندت الرأس على مقدم صدره، بعدما وسد كتفيها ساعده.

ستكون الليلة أحلى ليلات العمر، تتوسطنا زجاجات الخمر، لاأبغى أن اشعر بالعالم.

إنك رجل شيطان، لكنى أحببتك من أولى كلماتك، أحسست بأنك صنف متفرد، نوع خاص لا أملك أن أبعد عنه.

ولماذا كان الإصرار على ترك المقعد؟

- أو صدقت؟ لو كنت أريد مفارقتك ماكنت لتجبرنى أن أجلس.

لم تكن السيدة «الحسناء» بهذا الوصف الممتع، بل إن العينين الكحلاوين ذابلتان، والصدر الريان الفالوذج ممصوص، والساق البيضاء الريانة بنهايتها عرقوب لاتحمد عاقبة له، ابتهجت تلك السيدة، جعلت تتخيل مسكنه وتزف النشوة فى الجسم الذابل.

«مفتش القطار يتفقد تذاكر الركاب، اعتدلت فى جلستها واخرجت تذكرتها، علّم عليها بالقلم وهو فى دهشة، إذ كيف يلتفان كزوجين أو بالأحرى عاشقين وليس معهما إلا تذكرة واحدة».

- تذكرتك ياسيد؟

– لايوجد عندى

– لطفاًأعطينى قيمتها؟

– لايوجد عندى مال، فقدت نقودى بالمستشفى.

«حاولت السيدة إخراج نقود لكنه انفعل كثور هائج «

– ماهذا ياسيدتى؟ سنحتاج إليها فيما بعد، من أين سنأتى بنقود لشراء الخمر؟!

عامل التذاكر دهشاً:

– أنتِ زوجة هذا الأستاذ؟

رد عليه غاضباً:

– لاياسيد، بل مشروع زواج، سنجربه الليلة، ستزور البيت، بيتى، ونبيت سوياً، إن راقت فى عينى وأنا رقت لعينيها نتزوج، لكن بعد طلاق من زوج كالوحش الكاسر، يضربها بل يعشق دون حياء أخرى، هل ترضى بهذا؟

قالت مرتعبة:

– مجنون أنت بلا شك، ماهذى الكلمات الرعناء؟ هذا كاذب ولا أعرفه

قال متعجباً:

– أو أنى أكذب، ألم نتفق بأن.....

«قالت بصوت عال وبسرعة متلاحقة الكلمات لتغطى على مايتفوه به».

– هذا دون مراء مجنون!

«عامل التذكر ساخرًا:

– من فيكم يكذب، أما كنت نائمة فى صدره مثل قطة أليفه؟

– أخطأت الفهم، بل أثقل جفنّي النوم غافلني وتقرب مني، بل وضع ذراعه دون حياء فوق كتفي، ولم أشعر إلا حين أتيت.

كاذبة، داعرة!

عامل التذاكر:

– مابك ياسيد، ماهذى الألفاظ؟

– حقى ياأبله

– أى حق ياأحمق؟

يصفعه الرجل، يرد عامل التذاكرعليه بصفعة، يأتي رجل الأمن بالقطار، يأتي جمع من ركاب العربة، يقسم مسؤول الأمن بأن يأخذ كل حقه فى أول قسم للشرطة .

***

فى قسم الشرطة الضابط يتصفح أخبار الحوادث فى جريدة الصباح، تتوقف عيناه على خبر يتأمله، ساعتها يدخل رجل أمن القطار، معه الرجل والسيدة وعامل التذاكر، يتكلم بعد الإستئذان ويشير إلى الرجل

– هذا رجل متهم بال.....

حملق الضابط مدهوشًا وقال مبتسمًا:

– معقول هذا! أهلًا أهلًا رضوان الشامى باشا، أهلًا أهلًا إجلس يا باشا؟

أحس الجمع بحرج إذ كيف يجيئون برجل تعرفه السلطة متهمًا بالأخلاق الشاذة، توقع كل منهم ضررًا ما، لكنه ليس بهين وإن كان الحزن الأكبر قد حل برجل الأمن، وحادث كلٌ نفسه.

تمتم رجل الأمن: آه لوكنت أدرى؟ هل كنت حمارًا حين قبضت على الرجل الطيب؟ ومن يدرينى فلعل المرأة عاهرة فعلًا، آه ياخراب البيت، هاحق المظلومين يعود إليهم، فلم تزعجني يومًا الدعوات علىَّ، الآن صعدت للخالق والساعة ألقى جزاءً رادع.

وهمس عامل التذاكر: هيئته تبشر بثراء، هذي قسوة مني لظروف الناس، لن أفعلها فيما بعد، لو كان هنالك بعد، لابد وأن الباشا يعرف من يمكنه فصلي من عملي.

وأرتعبت المرأة وهمست لنفسها: هذه دعوة زوجي الطيب، كم كنت أخونه وألفق قصصًا ضده، هذا الرجل ماكان ليأخذني بيته، بل يبدو من منظره أنه صاحب منصب في الشرطة السرية واستدرجني لتنفذ دعوة زوجي المظلوم.

قال الجميع بصوت أسيان محزون:

- لاندرى والله ياباشا، إن الباشا .....

- لا بل أشكركم.

إختلط الأمر وعلا فوق وجوه القوم الدهشة!

قال الرجل:

- أو تعرفني ياهذا الضابط، أنا لا أعرفك؟!

- من لايعرفك اليوم ياسيد رضوان؟

- انظروا ياسادة هذا الإعلان وتلك الصورة: «إبحث معنا، الاسم رضوان الشامى، يربو فوق الخمسين قليلًا، طويل القامة، خمري اللون، رمادي شعرالرأس، وسواد فى أسفل عينيه وفوديه، كان «مديرًا عامًا «يذكر ذلك دومًا، مريضًا خطرًا هارب من مستشفى الأمراض العقلية مذ عدة أيام محكومًا في قضية قتل».

نظر ثلاثتهم نظرات الفرحة، علت البسمة بعد الضيق، قالوا فى نفس واحد:

- لكنه سافل وأهان الشرفاء، ولابد وأن يلقى المتسبب فى هربه جزاء لذاك الجرم.

دعاء .. أرجو اللـه أن لايستجيب له!

مابين صورتي في شهادة المدرسة الإبتدائية و صورتي الملونة الآن أكثر من خمسين سنة، لم تخضع الصورة الأولى ذات اللون الأبيض والأسود لإجتهادات المصور في تحسينها فقد كانت حسنة الملامح، بريئة النظرة قبل أن يتسلل الشيطان في دفقات دماء قلبي المتوالية عابثًا كيفما شاء ؛ أو سريانه في جسمي مثل قنوات مياة ملوثة طويلة في حقل أخضر اللون يانع الزرع، والأمل كان يبشر بحصاد رائع محاولًا قدر جهده إفساد مزروعاته الغضة التي غرستها يد اللـه.

«هامش»..لاعجب في ذلك فتلك وظيفته التي أقسم في معصيته للـه أن يفعلها فينا، ومن عجب مكّنه منا فهويرانا وقبيله ولانراهم، ويتجول كيفما شاء فينا ولانستطيع اختراقه، ويشاركنا الحرث والنسل دون إستذان؛ كضيف ثقيل يفتح علينا أبواب سترنا عنوة «.

صورتي الصغيرة التي كنت أبتسم فيها ببراءة لم تمكنني الحياة منها فيما بعد، و رغم مافات من زمن طويل أذكر أن «المصور» حينها كان يرجوني أن أكف عن الضحك والإبتسامة العريضة حتى لاتفسد الصورة، ولاأدري لماذا قلت له: هل الحزن يليق أكثر بالصور الثابتة؟ فتمتم الرجل وكأنه يحادث نفسه: غدًا ستعرف، وضحك ساخرًا وقال مامعناه لاتكن متطرفًا فقط إبتسامة خفيفة.

«هامش توضيحي» .. لم يكن مصطلح «التطرف» قد إنتشر على ألسنة العامة أو الخبراء الإستراتيجين في القنوات الفضائية، فقد كانت الحياة تخلو من تلك المهن التي تدر على محترفيها أمولًا طائلة مقابل ثرثرة فارغة المعنى.

كان السلام يغمر وجهي البريء والحياة تفتح ذراعيها مرحبة بي، وكنت كلما أعدت قراءة ورقة نجاحي في إتمام الشهادة الإبتدائية بتفوق ملحوظ أحَّلق بجناحي الأمل في مستقبل باهر . لم أفكر حينها في كم من السنوات سوف أعيش فلم يكن للموت حديث في نفسي ولا توقع مثل كل الأطفال الطبيعين، وكأن الحياة عريضة واسعة ممتدة بلا نهاية .

اجتهد المصور في صورتي الخمسينية؛ فأزال مابها من تجاعيد الوجه وحول العينين والرقبة «اللغد» الذي تدلى لأسفل بفعل الجاذبية الأرضية كما يقول الأطباء، ومن عجب كان يطالبني المصور أن أبتسم أكثر حتى يزول مافي عيوني من حزن باد سكنهما بفعل تقلبات الزمن معي!

كانت فرحتي كبيرة عندما صادفني في مكتبة مدرستي الإعداية كتاب اسمه «وفيات الأعيان «، و معنى الأعيان أى المشهورين بين الناس، وفي مفهومنا الحديث «الأثرياء جدًا»، ولذا بدأت تقليب صفحات الكتاب دون أن يعنيني أمرهم فلست منهم أو ابن واحد فيهم فقط لمجرد المعرفة، ما لفت نظري أن الكتاب الورقي كانت طباعته عصرية أنيقة، وأن إناس مما ذكرهم الكتاب عاشوا فوق الأف سنة،

فراودني الحلم بهذا العمرالطويل رغم أن إناس في منطقتنا يموتون كل يوم، ولكنني ماكنت أسأل عن أعمارهم ظنًا مني أنهم ماتوا بعد أن شبعوا من الدنيا وحققوا فيها مايريدون .

وهكذا راودني أول حلم في حياتي؛ أن أعيش ألف سنة مثل الذين عاشوها، بل ومنهم من عاشوا فوق الألفي سنة كما يقول الكتاب، ولكنني راق لي رقم الألف وقنعت به لتحقق أحلامي.

«هامش» .. لم يكن حلمي لمستقبلي حينها كبقية الأطفال عندما سألنا مدرس الفصل مستعرضًا أحلامنا طبيبًا أو مهندسًا، بل كانت أمنيتي أن أكون ضابطًا بجيش بلادي أحمي حدودها وأشارك في عودة القدس الشريف من سطوة المحتل.

أذكر جيدًا الإبتسامة العريضة التي كانت على وجه مدرس الفصل وهو يربت على كتفي، ولكنني لاأتذكر هل كانت إبتسامة حانية عطوفة مُشجعة أم ساخرة هازئة؟

جعلت أكرر وأكتب في كراسات الدراسة وعلى الحيطان كلمة «ألف سنة «دون أن أذكر التفاصيل، وحرصت ألا أخبر أحد بهذا السر فهو بيني وبين واهب الأعمار ورأيت من الكياسة أن لا أبوح به فلايحققه اللـه لي، وحتى لايحسدني أحد الناس وتطير سنوات العمر الذي تمنيته فتتقزم ولا أعيش الألف سنة، ولا أدرى الثقة التي كانت تسكنني إن اللـه لامحالة سيتسجيب أو إستجاب فعلًا، ولما لا وقد

حدث مادعوته به كثيرًا حسب كتاب «وفيات الأعيان» وحسب إمام المسجد، إن نبي اللـه نوح عليه السلام عاش فوق ذلك، منها ألف سنة إلا خمسين قضاها في دعوة الناس للإيمان بأن للكون خالق؛ يدبر أمره ويدعوهم لطاعته وطاعة أوامره.

ماكنت أظن إن اللـه لايحقق رغبة مخلوق مادام سبحانه قادر عليها، فقد أعطاها لمن عصاه ورفض السجود لأبينا آدم حين أمره، فما بالنا نسجد لجلاله صباح مساء.

عندما تنقلت بي سنوات عمري نحو دراستي الثانوية قرأت لكاتب كبير: «إن كل كتاب يقرأه الإنسان يضيف لعمر القارىء سنوات عمر المؤلف التي استغرقها في تأليف الكتاب، وبهذه الطريقة يمكن للإنسان أن يعيش ألف سنة»..ولكنها حياة إفتراضية ينفق فيها القاريء أيضًا جزءًا من عمره.

«هامش جديد».. لم يكن وصف «حياة إفتراضية» قد تداوله الناس إلا بعد إخترع الشاب الأمريكي مارك «الفيسبوك»، ولذا لا أتذكر المصطلح الذي جال بخاطري ساعتها، ولم أقتنع حينها بتلك «الألف الإفتراضية» التي يحرضنا عليها الكاتب الكبير بالقراءة، فأنني أريدها حقيقية «ألف سنة».

ومن الأسرار التي أبوح بها الآن أنني كنت أحسد «عزازيل» الموسوم بالشيطان لأنه شطن أي إبتعد عن طريق الطاعة، أو أبليس لأنه بلس أي

يأس وأيس من الرحمة – كما يقول فقهاء الدين؛ ويؤكدون بما لايدع مجالًا للشك أن الآية الكريمة التي يقول فيها الحق: «ورحمتي وسعت كل شيء» ليس للشيطان فيها نصيب؛ رغم أنه شيء من الأشياء مثلنا!

أعترف أنني كنت أحسد الشيطان لطول عمره وقصر عمر الإنسان، وكم غضبت في نفسي لأن أبينا آدم لم يدعواللـه بمثل دعوة «عزازيل «بطول عمره وعمر أولاده من بعده!

«هامش» .. يقول المفسرون:إن كلمة «إيل» معناهالفظ الجلالة «اللـه» في اللغة القديمة، مثل إسرافيل وميكائيل وجبرائيل وبذلك فمعنى الإسم عزازيل «العزيز عنداللـه»، قبل أن يتفاخر بأصله الناري ويرفض السجود لمخلوق من طين ويُطرد ملعونًا!

ولكنني كنت أتمنى أن أراه لأسأله سؤالين الأول منهما: ألم تمل من تكرار عملك اليومي المتكرر طوال هذا العمر الطويل جدًا من الغواية والضلال والإضلال؟ ألم تراودك نفسك أن تصنع ذات مرة خيرًا ولو علي سبيل التسلية لا الطاعة والتوبة؟ فالإنسان رغم عمره القصير بالمقارنة بك زهد اللون الواحد والطعام الواحد والهواء الواحد والسماء الواحدة والأرض الواحدة، لذا عشق الترحال وحاول في إيجاد الإكتشافات الجديدة، وحاول الطيران مثل العصافير والنسور والغربان والصقور وغيرها، حاول الإنسان التغيير وفشل في بعضها ونجح في أخرى حتى صعد القمر ودار مع الأفلاك وأخترع الكثير من

الخيرات والمهلكات، ومارس السحر ليأتي بما لايستطعه الإتيان به بشكل طبيعي.

ولكنه يرانا وقبيله ولانراهم فكيف لي أن أحدثه؟

كنت أرى العشرين سنًا رائعة، والثلاثين بعيدة وعندما أصل لأيامها سأكون قد حققت أحلامي، وعند الأربعين راودني سن النبوة أى العقل والرشد، لا أعرف للأمراض وجعًا ولا للأطباء بابًا.

بعد أن بلغت الخمسين سنة رأيت الحياة تتسرب من يديّ دون أن تتحقق أحلامي، وبعدها بسنوات رأيت الحياة ثقيلة بطيئة مملة وماتتحقق بالزيف والتزلف لأصحاب القراروالسطو على رقاب البسطاء وسرقة أرزاقهم بقرارتي الرسمية لايريحني ويقلق روحي رغم شهرتي، وماتحقق بالصدق لايرو ظمئي ولايطفأ غِلتي .. وفي الستين وبعد خروجي إلى « المعاش» رأيت الدنيا هشة لاتستأهل ماصنعت حتى أمتلكها، لاتساوي «جناح بعوضة» كما وصفها من خلقها، وتراجعت عن دعواتي المتكررة للـه أن أعيش ألف سنة، فلو تحققت لأقبلت على الإنتحارمللًا، أو مثل الرجل «فاحش الثراء» الذي فعل كل مايريد؛ وفي النهاية أطلق الرصاص في رأسه، أو يصيبني الجنون بما أشاهده من أفعال البشر وخاصة الفاسدين الذين يظنهم الناس من الصالحين وكنت منهم في زمن ما، وأصحاب الصلاح الذين يعيشون الكفاف ويُجبرون على الهتاف باسم الفاسدين.

جعلت أدعو اللـه أن لايكون قد أستجاب لدعوتي القديمة «أعيش ألف سنة»، فمن يدريني فسبحانه لايخبرنا هل إستجاب دعاءنا أم لا، وكنت غرًا قليل الخبرة لم ير حقيقة الحياة المزوقة المبهرجة بأنها عجوز شمطاء عارية بشكل قبيح، وكنت كلما مررت على من نقول عليهم «المجانين» خاصة كبار السن الذين فقدوا عقولهم وهم يأكلون من المزابل ويعيشون بها، أقول لنفسي: هل تمنوا أن يعيشوا ألف سنة كما تمنيت قديمًا وصدمتهم الحياة ببشاعتها ففقدوا عقولهم؟

ماأضحكني على نفسي رغم شهادة من حولي لي بتمام العقل أنني سألت أحدهم وهو يلتهم دخان سيجارة بشراهة، لكنه نظر لي بدهشة وكأنه يقول: ألف سنة أمجنون أنت؟ ولا أدري لماذا يعشق من نسميهم المجانين تدخين السجائر بهذه الشراهة، تفوق الطعام والشراب والنوم، فهم لايسألون أحدًا لقمة أو شربة وينامون في أي مكان، لكنهم يسألون العقلاء أمثالنا «سيجارة .. سيجارة»؟

تراجعت عن فكرة العيش ألف سنة، وجعلت أدعو اللـه مخلصًا مُلحًا في الدعاء، أن لايكون قد إستجاب لي وكتبني أن أعيش ألف سنة مثلما عاش الأقدمون فليس أمام إرادة اللـه – إذا أراد – إرادة ..

«هامش أخير»: ترى لو عاد بي الزمان وعدت طفلًا جميلًا، ابنًا لملك أو أمير أو رئيس بلاد مستقرة غنية أو سلطان؛ يدللـه الجميع

ويخشى غضبه الكثيرون وينافقونه ويدعون له بألسنتهم فقط، هل كنت سأرى الحياة تستحق أن أدعو اللـه أن أعيش ألف عام؟

تمنيت من جديد أن أرى الشيطان لأسأله سؤالي الثاني: ألم يمل من طول عمره وعمله رغم مابه من مشقة وقبائح وفكرفي أن يدعو اللـه بإنهاء حياته؟ ولكن هيهات أَنى أراه؟

الذئب

رويدًا ينطفيء الشفق الملتهب بوجه الأفق، رويدًا تمسحه فرشاة الليل، تصبغه باللون الأسمر.

يغسل كفيه بماء الترعة يتوضأ، يفترش القش أمامه يكبر لصلاة المغرب . الكون خلاء، كف الليل توزع أطنان الصمت، شيئًا شيئًا تعلو أصوات ضفادع الليل في الحقول.

ترك الأرض السبخاء وراءه، أشجار الطرفة في الليل أشبه بأكوام سوداء مخيفه، ترك الترعة الجديدة الخالية من الماء لم يكتمل حفرها بعد، أنهى عمل اليوم، أخذ الأجر، مسح على صدره، تمتم: خمسون جنيهًا تكملها هذى العشرة قروش، آهٍ ياسلوى يابهجة عمري كم أحلم باليوم الموعود، والدها يصر على الستين جنيهًا، والبنت جميلة لهطة قشطة، حورية من الجنة، سلعة ربى غالية، لن يكتمل حفر الترعة قبل تمام العام، سأعمل فى كل الأيام، أُزف إليها، أمرغ وجهى فوق الوجه النوراني المشرق، الشفة الحمراء كوردة بللها قطر ندى الفجر - رضي المولى عنه أمير المؤمنين، باب العلم - «تدفيء الضجيع وتروي الرضيع».

يطوى معالم السكة بخطواته المسرعة، ساقية الحاج على، ساقية الشيخ متولي، سقيفة عم مجاهد، أضع الفأس هنا حتى الصباح، مامن أحد من خلق الله بحقله يبدو أني تأخرت الليلة.

امتلأ الصدر هواءً رطبًا، هاجمه الجوع عندما مرَّ بقيراط أشجار الباذنجان بحقل خاله متولي لكن يفصله يفصله عنه الترعة.

فلأمش نصف الساعة وأصل البيت، تُرى ماذا طبخت أمى اليوم؟ لن أسهر هذى الليلة أشعر بالتعب وبالإرهاق، سأصلى العشاء وأرقد.

تحسس بطنه، كم أشعر بالجوع، ينازعنى الشوق إلى ثمار الباذنجان الأسود، خلع ملابسه ونزل الترعة، جمع الثمرات، عشرة عشرين، يتخيل أن بمقدوره أن يأكل كل ثمار القيراط باشجاره.

الأولى بسم اللـه، غاب القمر الليلة، ماهذا؟! شبح يتسكع فى الناحية الأخرى من الترعة، هيئته كلب ضال، حاذاه، هم الشبح ليطفو فوق الماء ويعبر نحوه، ذئبٌ سترك ياستار، قذف بقوته باذنجانة نحوه فى الماء، اندفع الماء شظايا فى عينيه، تراجع، سترك ياستار، ارتعب القلب، لا أخشى غير إلهى ثم الذئب، رأيت كثيرًا مما يرعب أعتى الناس، مااهتز فؤادي لحظة، حبلًا من نار يقطع طريقي ليلًا، يرقص تحت القدمين، أدركت سريعًا أنه شيطان، قلت له ببرود تام: اذهب عنى إلى من قتلك، قرأت آية الكرسي، إنطفأ تبخر .

جِنَّية فى عز القيلولة ناشرة شعر الرأس حواليها، عيناها بالطول حمراء بلون الدم القاني؛ يتطاير فيها ومنها الشرر المرعب، أطلت النظر إليها أخرجت لها لساني سخرية ومشيت، لا أخشى إلا اللـه.

«دمه زفر» قالتها عني القرية، لاترهبه عفاريت أو جنيات، صوفيًا رفاعي العهد، مددًا ياسيدنا .

الذئب القاتل لايحفل بعهود صوفية، لابد وأن آكل كبد ذئب، تلك وقايتنا منهم، هكذا أوصانى جدى، لكن الأمنية الآن مُحال، سترك ياستار لو عبر مياة الترعة إنقض علىَّ وأردانى أشلاء .

يهم الذئب ليعبر، يقذف باذنجانة فى الماء، يتراجع، يهمُ، يقذفُ، يتراجع، يهمُ، يقذف، يتراجع، إنتهت ثمار الباذنجان، ويلى!

أين الذئب؟ ماعدت أراه الحمد لربي، يئس تراجع وتقهقر.

إمتلأ الصدر هواءً إتأد القلب، تلك كرامة أشعرني ربي بالجوع كي آتي بثمار الباذنجان لأنجو بحياتي – سبحانك ربي – لايدري مخلوق مافي حجب الغيب المكنون، مددًا ياآل البيت.

***

يشعر بدبيب يأتي من خلفه، هو ثانيةً! ياليلة سوداء اللون – سترك ياستار، لافائدة الليلة، نزع الجلباب بسرعة، جره خلفهُ، حيلة والده وصاياه: «الذئب يأكل رجلًا كالجبل لكنه يخاف من إثنين ولو كانا يرضعان اللبن».

يقترب الذئب، يرفع الثوب ويخفضه، يتراجع، يناوش ثوبه ويشاكسه، يرفعه ويخفضه، يتراجع، يناوش.

***

صوت محموم لإنسان يتأوه، يأتي من أحشاء الليل، شعلة على حافة بئر، هبات الهواء تنقض عليها لتطفئها، تقاوم تتماسك، ماهذا البئر، وماهذي الشعلة؟ ماوقعا ببصري قط! هذا طريقي أعرفه جدًا، أأكون ضللت العودة؟ لايمكن إني أعلمه شبرًا شبرا، فلأمش حتى أتبين!

الحشرجة المحمومة تأتي من جوف البئر، ويلي رجلًا مقتولًا، حشاشة روح تخرج، رأس متهدم، رائحة الدم الساخن تنتشر حواليه، هرب الجبناء، حمدًلله لوظلوا لقتلوني، يرتفع الثوب وراءه، إنصرف الذئب إلى المقتول يتشممه، طرح الثوب على كتفيه، إنطلق كريح عاصف نحو القرية.

***

- تأخر ياولدي أخوك الليلة

- وما أفعل ياأمي؟ دومًا يتأخر، لايخشى ظلام الليل.

قلبى يأكلني عليه، طريق مقطوع هيا نقابله نفعل شيئًا.

- أمري للـه هيا ياأمي.

***

تنغمس السكة فى جوف الليل كخنجر، لا أحد يبدو، لحظة، لحظات، خطوة، خطوات، يترامى صوت أقدام تدق الأرض بقوة.

هل تسمع ياولدي دق الأقدام؟

– اسمع ياأمي قلبي يذوب رعبًا، ربما شيطان أو عفريت أو جني!
هيا نرجع أني أخشى الظلمة.

كن رجلًا ياولدي، ربي أستر وأرحم.

***

شبح يقترب سريعًا، يقفز مجنونًا كما لو كان يطير، تتقلب كلمات الرعب برأسه مثل ذوابع ريح عاصف، لحظة ابطيء فيها يأكلني الذئب، هل أكل الرجل المتحشرج؟

يقفز، يقترب

– ولدي!

صرخة أمه المباغتة هزت الأرض تحت قدميه، والسماء فوق رأسه، ردد صداها بشكل مكثف كل ماحوله، إرتعب، إنتفض، إرتطم بمصدر الصوت – أمه – سقطَ بين ذراعيها بعدما غلّفه الأمان !

السوق

أيام الأسبوع سواسية تمرُّ، لاتتوقف قريتنا فيها إلا يومًا واحدًا، تنفق فيه الأسر جنيهات وجنيهات وجنيهات، حسب الأحوال المالية بما تسكبه أيدي الزمن بحافظة نقود رب الأسرة، ذلك هو يوم السوق الأكبر بيع وشراء .. بيع وشراء .. في كل الأشياء ثمار الفاكهة و أعواد القصب الأحمر (خد الجميل و شق القمر)، الخضراوات والغلات والحيوانات ومايُنتج منها.

هكذا دارت أفكار الشاب الفلاح الطيب خفيف الظل السيد توفيق المصري، مما يُسكب فى أذنيه من رواد السوق .. لكنه قرر ذات مساء أن يسبر غور المسألة بنفسه، أن يذهب للسوق ليعرف ويرى بعينيه لابعيون الناس، أن يعرف كل الأشياء فليس من الحكمة أن يجهل أبسط مايعرفه الخلق، قال لنفسه دع عنك كلام إمام المسجد: «شر بقاع الأرض الأسواق وخيرها المساجد» فقد نلت من الخير الكثير بذهابي إلى المسجد، يبقى أن أعرف الشر القابع فى السوق حتى أعرف كيف أواجهه إذا مالزم الأمر، فقد كان يخشى أو قل شديد الخجل أن يذهب لحضور عزاء أو فرح، وكان يكره هذا الخجل كي يفعل ما يفعله من هم فى سني عمره، صمم فى داخله كسر الخوف فقد أصبح رجلًا.

***

زحام يتلوه زحام يتلوه زحام، فكر فى أن يعدل عن فكرته ويعود لبيته لكنه قرر استكمال الرحلة بعدما ضحك طويلًا من درويشين صوفيين على صدر السوق، قال الأول للثاني:

- انظر يا مولانا

وأشار إلى جموع الناس الغفيرة الرائح والغادى

- ماذا تبغي؟

- هل تدري هذا الخلق؟

- أعداد لايحصيها إلا رازقها

- لولا نكاح الرجل لزوجته ماكنت ترى تلك الكثرة، فالعالم ياسيدنا واحد لاغير نصفه ناكح والنصف الآخر منكوح!

دهش الدرويش الثاني وكأن ماقاله صاحبه إكتشاف، تمتم: «حقًا هذا حتى نحن يامولانا!»..

***

دخل السوق يغالب ضَحِكه، لمح بطرف عينه فتى وفتاة إنزويا فى ركن يهمس أحدهما للآخر؛ تعلو البسمة والنظرات اللامعة الحُلوة، قال لنفسه: لابد وأن أعرف ماذا يدور؟

استرق السمع وكأنه مشغول بأمور أخرى، تهلل وجهه طربًا .. يكتم ضحكات الفرحة حين سماع الكلمات الحُبلى بالنشوة.

العالم كل العالم أنتِ، نور العين وربيع القلب وروض الروح، تأتيني منامًا فأصحو أقبل كل الأشياء؛ وسادة نومي وغطائي وهواء الغرفة، حتى أني لا أفتح نافذة الحجرة كي لايخرج منها الهواء الذي حمل طيف حبيبة قلبي إليَّ.

تخجلني كلماتك، فأنا لاأعرف ماذا أقول؟ ولكني غاضبة منك فماذا تبغي بحديثك والبنت «ثريا» جارتنا أول أمس لاتنكر؟ فقد كنت أراقبك من نافذة بيتنا.

جاهلة مازلت كثيرًا عني، للعين مئات لكن من تسكن قلبي وتعشش داخلة كعصفور الجنة أنتِ ياجنة ربي في أرضه، وأطمه ألا يسكنها سواى.

لست لغيرك فأنت الفارس والخازن بل مفتاح الباب الأوحد في كفيك.

تهلل صاحبنا طربًا وهمس لنفسه: أواه .. الحب جميل لابد وأن أعشق يومًا؛ يومًا ماذا حالًا إن جاءت فرصة؟

– أخذته الأقدام إلى سوق الأغنام، رأى كيف تكون السمسرة المصحوبة بالغش، لعن التاجر والسمسار تذكر قول نبي الأمة:التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء؛ رفع وجهه نحو السماء وقال: هل يرضيك مايفعله عبادك؟!

صدمه مشهد رجل يضرب امرأة بخف بعير، والمرأة تصرخ والناس تضحك وما منهم يحاول الدفاع عنها! قالوا: سارقة ضبطها هذا

القصاب متلبسة تخفي خف البعير في ملابسها، همس في نفسه: ربما تسرق من جوع أو حرمان ..فلأمشي لست المسؤول عن الكون.

أحزنه بكاء رجل سُرقت أمواله «ثمن بيع جاموسته»، لعن السُرَّاق لصوص الفرحة من قلوب الناس.

طالعه وجه الشاب يبتاع الحلوى لمحبوبته، تهلل داخله: «لاشيء أجمل من الحب» كم أتمنى أن يخصص ربي جنة للعشاق لايدخلها سواهم.

جعل يتنقل في السوق لكن فؤاده رغم ماشاهده من سلبيات يتمنى فتاة؛ كي يسمعها ويسمع منها كلمات ناعمة المعنى، إمتلأ شهيقًا مسح على صدره وتمتم: إن شاء اللـه سيحدث.

جعل يقلب ذاكرته، إن فلانة بنت فلان إبتسمت لي يومًا تأكيدًا كانت تقصد حبي لكني لم أفهم، وفلانة قالت يومًا كلمات لم يدرك عقلي ذلك . نظر إلى نفسه أعجبه هندامه، داس على قدم امرأة وهو يتيه بنفسه، قالت في ضيق: ألا تبصر ياأعمى؟ إعتذر إليها ومضى.

أمام بائعة للخضراوات أعجبه حسنها وملامحها الحلوة، قرر أن يشتري منها أى شيئًا.

أعطيني كفة ميزانك؟

- تأمر يابركة

نظر لعينيها خفق قلبه وهمس: سبحانك ياربي ماهذا الحسن، هذه تستحق أن يقبل يديها الناس، لا أن تجلس بالأسواق؛ لمس يدها وهي

تناوله كفة الميزان، نظرت إليه وقالت ضاحكة بميوعة: ماذا تقصد حين لمست يدى؟

- عذرًا ياسيدتي

- عن ماذا أو وقد أعجبتك؟ غيرك قال كثيرًا ذلك، لكن ماامتلأت عيني حتى الآن برجل منهم، يريدون المتعة وأريد شرع اللـه.

مثلك لاتجلس بالأسواق بل تأمر فتطاع.

قالت بعد تنهدة: هذا حكم اللـه ولكن يبدو أنك شاب طيب . تشجع أكثر إذ كانت تضع أصابع كفها فوق يده وهي تحادثه، قال دون تفكير ضاحكها: عيناكِ أجمل مافي الكون، هل هذي خلقتها أم بعد التعديل؟

ضحكت قائلة: «بعد التعديل؟» أمتعت قلبي بكلماتك الحلوة، هل أعجبتك إلى هذا الحد أم مجرد كلمات تقولها لكل من تحلو في عينيك؟

أقسم أنه صادقًا فيما يقول، وأنه لولا أن لها زوج على مايبدو يشرفه الإرتباط بها.

قالت زوجي يرحمه اللـه، مات وترك لي ثلاثة أطفال، الطريق أمامك مفتوحًا لو كنت تريد؟

صدمته الكلمات «ثلاثة أولاد»، قال في عجالة وهو ينصرف وكأنه يهرب من كارثة تلاحقه، سأعود إليكِ، سأعود إليكِ .. لطم خده بعد أن ترك السوق وتمتم: ثلاثة أولاد؟

مذكرات عاشق للموت

«أمسيت عاشقًا للموت .. عاشقًا لفراق الحياة التي كنت من عشاقها المتيّمين؛ فكم كنت أرجو أن يطول بقائي ذائبًا في دلال ابتسامتها الفاتنة، وغمازات خديها اللعوب، سابحًا بين شواطئ عينيها الساحرتين، أمرّغ وجهي في تضاريس نهديها الرَجْراجين؛ مثل موج حنون أو وسادتين من حرير الفردوس، تمرّر أصابعها التي كالطلح المنضود بخصلات شعري، مأخوذٌ قلبي مثل درويش هائم أسْكرته عوالمها السندسية، وأحلامها الذهبية..

كانت أحبّ الأحاديث النبوية إليَّ «الدنيا حُلوة خَضِرة» وخير العشق عندي حب نبينا محمـد لأمّنا الحميراء عائشة، كانت الدنيا عائشتي الأسطورية، كنت لا أرجو أن أموت قبل أن أحقق ما تصبو إليه نفسي مثل نبي، بل ما كان يلذ لي ذكر هذا اللفظ البغيض «موت»؛ وما تصبو إليه نفسي كان كثيرًا، لكنني الآن، ودون تفاصيل أمسيت أعشق الموت؛ وذلك لأسباب خاصة جدًا لا أجد الجرأة في البوح بها، فسينكرها ويستنكرها من كانوا سببًا فيها، وما فائدة أن أجلب اللعنة عليهم وقد فارقت حياتهم!».

***

المصادفة وحدها قادتني إلى هذا المكان المحبب لنفسي؛ ولكنني كنت فيما مضى أخطط لتلك الزيارة قبلها بعدة أسابيع، نزلت من

«المترو» ودرت مع الطريق الموصل إليه، إنه سوق الكتب القديمة أو مايسمى «سور السيدة زينب»؛ رغم نقله بعيدًا عن المسجد الزينبي بدعوى التطوير فإنه مذ نقل منذ سنوات طوال تراه وكأنه يطيل رقبته تشوفًا وتشوقًا لعطر أيام مسجد «أم هاشم»، احتفظ باسمه القديم لوجاهته ومحبة الناس له، وربما لحنينه للحديقة الجميلة التى كان يستقر تحت أغصان أشجارها قبالة الباب الرئيسي لمسجد «أم العواجز» كما يلقبها المصريون البسطاء.

بينما أقلب في العناوين العتيقة، وجدت كتابًا عن الزهد وفضائله منسوبًا للإمام المُبتلَى أحمد بن حنبل .. فهتفت في نفسي إنه كنز معرفي ثمين، واشتريت الكتاب سريعًا دون جدال في سعره، فمثله من النادر مصادفته ..

بينما أقلّب صفحاته عثرت على ورقة بخط اليد، رغم قِدم حالتها، فإن ما بها وطريقة السرد تدلان على أن كاتبها رجل من عصرنا، أخرجت «نظارة» القراءة من جيبي لصغر خط الكاتب، وقرأت راجيًا أن تحوي الورقة من الحِكم والمواعظ ما لا أعرفه، وقد أفيد به، وليتني ما فعلت، فقد كتب فيها من لم يُذكَر له اسم ولا مكان إقامة، أوجاعًا تفوق حد الجنون ولا يرجوها إلا أصحاب النفوس المكلومة جدًا دفعته لتمني نهاية أشد ماتكون من المأساة، وتحت عنوان «مذكرات خاصة جدًا «سطّر ما سبق أن ذكرته من كلمات وردية عن عشقه المجنون للدنيا،

وولهه بها كفتاة من حور الجنة يحار في وصف جمالها، وقادم أحلامه التي يرجوها، ثم ويا لقسوة الأحزان ينقلب الحال إلى كراهة العيش فيها بسبب من أرغمه عليه غِلظة أبناء الدنيا؛ فقلبت هذا العشق المجنون كراهية لا تطاق!

***

هَدَّني ما قرأت، حتى شعرت بأن ساقيّ قد خارت قواها فانتحيت جانبًا قصيًّا وجلست على رصيف الشارع أكمل سطور ما في الورقة من مأساة، قال:

«غاية ما أريد؛ أن لا تقبض روحي بطريقة عادية مثل كثير من الخلائق، لا أريد أن أموت فيعرف الأصدقاء أو الأعداء .. المحبون أو الكارهون أو البيْن بيْن خبر موتي من مواقع «التواصل الاجتماعي» فيكتبون الكلمات المعتادة التى ربما تخلو من الأحاسيس الإنسانية «البقاء للـه»، «رحمه اللـه»، وقد يدعو لي البعض بالرحمة الإلهية والمغفرة وجنة الفردوس، أو ينصرف البعض دون تعليق أو وضع علامة «أَحزنني» الحمراء اللون المائل إلى الصفرة أو علامة «أَعجبني» الزرقاء اللون.

لا يهمني مَن سيكتب أو سيعلق أكان حزينًا حقًا لفراقي أم لا؛ فسوف يلحقون بي عاجلًا أم آجلًا، وما شأني بمَوتَى مؤجَّلين لبعض الوقت.

أريد أن أموت كما تمنت مريم العذراء البتول أم النور: «نَسْيًا مَّنَسِيًّا» .. لامجدِ لا شهرة لا أحلام ولا ذِكْر لي.

تلك رغبة نفسي التي أُرهقت حد الجنون، وروحي المتعبة كحمل كبير جدًا على عاتق طفل صغير؛ لكن - وآهٍ من قسوة لكن - الأمر ليس بيدي ولا أقدر عليه؛ كما قال الرسول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188] ..

مجرد أمنية صادقة قبل أن أتداعى وأنقضّ مثل جدار موسى والخِضر، ويمسى جسدي ـ أو على الأحرى ـ جثتي عبئًا ثقيلًا يعجزني عن الحركة والترحال .. قبل أن يصبح بنيان اللـه قعيد الأمراض المتوحشة.

وداعًا أيها الأمل، فقد أخطأت طريقك حين أضعت عمري فِرحًا في إسعاد مَن يتفنن في إحزاني وإيذاء مشاعري وتهميشي والضن عليّ بمجرد «بيضة دجاجة»!

ما عاد للأحزان موضع ولا فائدة تُرجَى، كل ما أرجوه يا إلهي؛ أن أدفن تحت سفح جبل مجهول؛ يحفر لي مَن يجدونني ـ بمحض المصادفة ـ حفرة تتسع بالكاد لجثتي ثم يهيلون عليها الرمال والحصى قبل أن أتعفّن ويضيقون برائحتي؛ ثم ينصرفون إلى وجهتهم، وهم لا يعرفون مَن يكون هذا البائس الفقير الذي أحسنوا إليه بستر جثته، حين لا يجدون في ملابسي ما يدل عليَّ، حتى لا يتكلّفون مؤونة إخبار أحد بخبري.

حتمًا سيرددون: «البقاء للـه أو يرحمه الرب»، ربما إشفاقًا على صاحب الجثة المجهولة، ويدعون اللـه أن لا يموتون بهذه الهيئة الشنيعة، وإنما وسط الأهل والأحباب بعد عمر طويل.

أو أن تكون جثتي وليمة لكائنات الصحاري الوحشية؛ فأكون ـ دون قصد مني ـ سببًا في إشباع بطون خاوية لمخلوقات تبحث عن رزقها، وأكون سببًا في إسعادهم ولو لوجبة واحدة، وأن تفتت حرارة شمس الصحراء هيكلي العظمي، فيتناثر هنا وهناك حتى يتلاشى بين الصخور والحصى والرمال، وفي الشتاء تجرفه السيول وتطمره في باطن الأرض القاحلة، وبذا تكتمل دورتي في الحياة.

لست سوداويًّا أو قانتًا أو ضيق الرزق أو عدميًّا، لكنها قسوة بعض من يسمّون بشرًا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويوم عرفات وعاشوراء طمعًا في دخول الجنة .. «طيبون حين يملكون قبضتي نقود ومؤمنون بالقدر»، على حد وصف شاعرنا المكلوم المحزون صلاح عبد الصبور، وأعتذر ثانية عن ذكر التفاصيل وذكر أسمائهم، فستكون جارحة جدًا، خصوصًا أنهم سيدّعون الحزن لموتي ويذرفون الدموع أمام الناس ويعددون مآثري وتميزي»..

ويكمل كاتب الورقة:» هذه كل سطور وصية ما بعد موتي؛ لكن ليس في يد أحد تنفيذها، حتى أنا صاحب الجثة المُتعبة، إلا إذا زارني

صاحب الزيارة الوحيدة، ملك الموت، وحيدًا جوار سفح جبل مجهول في صحراء شاسعة. لذا أرجو الذي خلق الموت قبل الحياة، أن ييّسر لي الرحلة إلى الجبال البعيدة القاحلة، وأن يلهم روحي الذهاب إلى هناك إذا حان القضاء وانقضى الأجل الممنوح لي، الذي لا يحدده ويعلمه غيره»..

***

بعد آخر كلمة، وجدت دمعاتي تبلل خديّ وتسّاقط على الورقة، وبحر من الأسئلة يعصف بي: ترى من أنت يا صاحب الورقة، أم أنك مُوَزَع فينا ولا ندري أو ندري ونستسلم لعواصف أقدارنا؟ وما فعلت بك الأيام والسنون؟ وهل ما زلت حيًا أم لقيت حتفك، وبأي طريقة؟ هل كما تمنّيْتها أم كان للعبة الحياة مع موتك شأن آخر؟

وجدتني أرفع كفَّيّ إلى السماء أقرأ الفاتحة ترحمًا على روحه التي أتعبها ما لاقت من حيف وجور، وربما لأرواحنا أيضًا .. ومن العجيب وقعت عيني في صفحة عشوائية بالكتاب على إجابة لابن حنبل صاحب المحنة الكبرى «خَلق القرآن» وإمام المعذبين وقد سأله أحدهم: كيف السبيل إلى السلامة من الناس يا شيخنا؟ فقال: تعطيهم ولا تأخذ منهم، ويؤذونك ولا تؤذهم، وتقضي حوائجهم ولا تكلفهم بقضاء حوائجك. فقال السائل: إنها من أصعب الأمور يا شيخنا. فقال: ومع ذلك ليتك تسلم!

هتفت بأعلى صوتي كأنني أحد مجاذيب أم هاشم، شقيقة الحسين، ذبيح يزيد بن معاوية، قاتل والدها الإمام: الظلم قديم في أرضك يا اللـه، الظلم إحدى دعائم دنيانا بل هو الدعامة الكبرى .. فهل يرضيك هذا يا مَن «العدل» اسم من أسمائه الحسنى! ومضيت كسير الخاطر كأنني أمشي على رأسي.

فهرس

إهداء 5

أفراح ما بعد موتي 7

مولانا «أبو العصافير» 23

توابيت العشاق 47

في عزاء «فينسنت فان جوخ» 57

المُلقن و«الكمبوشة» 65

حور العين 75

البحث عن زوجة السباك 83

ثورة المُحَنط 113

حدث فى القطار 139

دعاء .. أرجو اللـه أن لايستجيب له! 153

الذئب 163

السوق 171

مذكرات عاشق للموت 179